

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

حمامة سلام

Peace Pigeon

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا













نجيب الكيلاني

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٣٨٣

الترقيم الدولي:
978-977-255-429-4



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاج عبد الودود رضوان ألمع شخصيات قريتنا على الإطلاق، ثراؤه العريض يجعله محط نظرات الإعجاب والحسد والرهبة معًا، وأولاده الأربعة -الطبيب والمدرس والمحاسب والمهندس- يرفعون من مركزه، ويمدون فى سلطانه، هذا بالإضافة إلى نجلين آخرين لم تتح لهما فرصة التعلم بل اتجها إلى فلاحة الأرض الواسعة التى يمتلكها فى همة ونشاط يحسدان عليهما.

ولم يكن وجه التميز لدى الحاج محصوراً فى الأرض الواسعة التى يملكها ولا فى الذرية التى بارك الله فيها، بل امتد إلى صورته التى لا تخطئها العين وسط الألوف من البشر، فهو ذو أنف معقوف، ورأس كبيرة، وجبهة عريضة، وعينين نفاذتين يظللهما حاجبان كثيفان، وعود قصير مكتز يتدحرج به فى بطء وتأن، حتى لكأنه يعد خطواته، ويفحص الطريق مخافة أن يتفجر من تحت قدميه خطر غامض، إنه دائمًا فى حالة تيقظ واستعداد «دقيق حكيم»، يتخيل كل الاحتمالات قبل أن يقع فريسة مأزق من المآزق.

كانت الأمور تسير سيرًا هينًا حسبما رسم الحاج عبد الودود رضوان، وخاصة بعد أن كتب العقود مع الفلاحين المستأجرين لأرضه، وانتزع منهم التوقيعات «على بياض» حتى يستطيع فى أى وقت من الأوقات أن يقرر إيجار الفدان حسبما يشاء. . وفقراء الفلاحين مضطرون دائمًا للرضوخ لاشتراطاته القاسية، لحاجتهم الملحة لأرض يزرعونها، ومَن يتخلف منهم عن التوقيع فإن عشرات غيره على استعداد لقبول اشتراطات الحاج الجائرة. .

ولكن شيئًا واحدًا كان يؤرق «الحاج» ويبعث الضيق والألم فى نفسه. . إنه يأبى أن يعارضه أحد، أو يخالف آراءه، ومَن يحاول ذلك فالحاج كفيل بسحقه سحقًا. . لكن المعارض هذه المرة ليس واحدًا من الفلاحين وإنما هو ابنه «ربيع» الفلاح. . أكبر أولاده، والغريب أن ربيع يكاد يكون نسخة كاملة لشخصية أبيه. . . إنه يشبهه فى أفكاره وصرامته ومنطقه المادى الجاف، وفى شكله أيضًا، لم يختلفا فى يوم من الأيام، لكن الخلاف الذى نشب بينهما هذه المرة كان من أجل امرأة. . و«ربيع» قلبه خال من التجارب النسائية. . فهو يعتبر التفكير فى مثل تلك الأمور تفاهة وخسرانًا ومدعاة للإفلاس والخيبة. . . وظل كذلك حتى أوقعته «سكينة» فى شباكها. . وسكينة فتاة ليست ككل فتاة. . فروعة جمالها لا يختلف فيها اثنان، وذكاؤها مضافًا إلى جمالها كفيل بأن يحقق لها ما تريد، ومواهبها فى التمثيل والتشكل فوق التصور. . جريئة حتى لتحسب جرأتها انحلالا، متحفظة ومبتذلة فى آن واحد، ترى

منهـا الجـانب الذى تـود هى أن تبـرزه . . تربت يتـيـمـة من الأم ، وقـاست العـذاب مع زوجـة الأب . . وتعلـمت من تجـربتـهـا المريرة الكثـير من دروس الحياة وألاعـيبهـا . . ولـم يكن غريبًـا أن تنصب شبـاكـهـا «لربيع» بالذات . . ولكن الغـريب هنا هو أن تسلب لبـه ، وتملك ناصية قلبه فيخرّ أسير هواها .

وصـاح أبوه فى اشـمئزاز وضيق : هل جننت؟ ما الذى يعـجبك فى سكينة؟

- إنهـا فـتـاة طيبـة . . ذات خلق . . وأبـوها لا بأس به . . ثم إنها . .

فـقـاطعـه أبوه قـائلا : أكـمل أيهـا الغـبى . . تريد أن تقـول إنهـا جميلة .

ثم اقترب من ابنه وأمسكه من طوقه فى عنف وهتف : انظر إلى أمك .

وسدد ربيع نظرات حزينة إلى أمه الدميمة ، وطفق يائسًا ، بينما استطرد أبوه : إنهـا عـارية من أى جـمـال . . لكن عـقلهـا يزن بلدًا بأسره . . عندما تزوجتها لم أسأل عن جمالها ، كان همى منصبًا على إدارتها للبيت ، وطريقة تفكيرها ومعاملتها للخدم .

وهمَّ ربيع أن يضيف : وبالطبع كان همك الأكبر مُنصبًا على عدد الأفدنة التى سترثها من أبيها الثرى . . لكنه لم يستطع أن يتفوه بمثل تلك العبارة .

وجفف الأب عرقه، ثم هدأ قليلا، وقال ونبراته يشيع فيها الوقار والحكمة: كان جدك رحمه الله يقول «إياكم وخضراء الدمن».

ونظر إليه ربيع دون أن يفهم كلمة واحدة مما قاله أبوه، فأسرع الأب قائلا: أعرف أنك جاهل أحمق ولا تفهم مثل هذه الحكَم.. خضراء الدمن يا غبى هى المرأة الجميلة فى المنبت السوء أو المرأة التى حسن مظهرها وساء مخبرها.. وما أظن سكينة إلا من هؤلاء.

لم يكلف ربيع نفسه مؤنة التفكير فيما قاله أبوه، إنه فى حالة لا تسمح له بأى تفكير سليم، سكينة قد ملأت قلبه تمامًا، أصبحت كل أمله وحياته.. بدونها لن يستطيع أن ينعم بمركز أبيه وثرائه. وخيل إليه أن رأسه يكاد ينفجر، وأن كل شىء حوله بلا معنى ولا قيمة إذا حرموه من سكينة ولا يهمه إن كان أبوه يفسر «خضراء الدمن» خطأ أو صوابًا.. ليكن ما يكون، وانطلق يقول: يا أبى.. إن تقديرى لك، واحترامى لآرائك فوق العين والرأس.. لكنى لن أتزوج غير سكينة.

ودقَّ أبوه الأرض فى غيظ وصرخ: أيها الكلب تريد أن تتزوج صعلوكة مثلك؟

- كل شىء نصيب.

- أنت تهرب وتلصق خيبتك بالنصيب.. هه.. تكلم.. إن جمالها لن يسقيك أو يطعمك أو يحفظ هيبتك.

ثم خفف من لهجته الحادة، وأخذ يقول: افهمنى أيها المغفل، هذه مجرد نزوة.. كلنا كنا مثلك. أنت الآن تعشقها، لكن ثق أن هذا العشق لن يدوم.. سيبرد يومًا بعد يوم، وستضيق بها ذرعًا، ثم تندم حيث لا ينفع الندم.. فكر فى مستقبلك قبل أن تفكر فى ملذاتك الطائشة. أنا أبوك وأفهم الحياة أكثر منك، كلنا مررنا بتجربتك تلك لكننا استطعنا أن نعتصم بالحكمة، فلم نرتكب مثل ذلك الخطأ الجسيم الذى توشك أن ترتكبه.

وتدخلت الأم بعد أن لاذت بالصمت طوال هذه الفترة، قالت: استمع لنصيحة أبيك يا ولدى.

وكم كانت دهشتهما حينما سمعا ربيع يقول: لن أتزوج غير سكينة وإلا فلن أتزوج مدى الحياة.

وارتفعت يد أبيه فى الهواء، ثم استقرت على وجه الابن فى صفعة قوية، فساد الشحوب وجهه، ثم وضع يده مكان الصفعة، وسدد إلى أبيه نظرات ذليلة صامتة، بينما هتف أبوه بصوت كالفحيح: سوف أزوجها لك.

لم يصدق ربيع أذنيه، وسقطت يده من مكان الصفعة ونظر إلى أبيه فى بلاهة، وشاركته أمه الدهشة والاستغراب، واختطف ربيع يد أبيه ليقبلها لكن أباه انتزعها فى غلظة ولم يمكنه من ذلك، وتركه ومضى مغضبًا.

وحينما انفرد الحاج عبد الودود بزوجته، قالت: كان تصرفك غريبًا بل غاية فى الغرابة.

- إنه يبدو كذلك فعلا . لكن ماذا أفعل؟ هل أطرده؟ ماذا سيقول الناس عنى؟ سيتهموننى بالأنانية . . وسيصبح ابنى فى نظرهم شهيداً مجنياً عليه، إن أى تمزق فى الأسرة قد يعرضنا للقيل والقال، والبيت الممزق تنهشه الكلاب من كل جانب، وأنت تعلمين كثرة حسادنا والحاقدين علينا . ثم إن الأمر لم ينته بعد . . إن موافقتى الظاهرية قد تأتى بنتيجة غير متوقعة . . حرمانه من سكينة سيزيد لهفته إليها، أما فتح الطريق أمامه فقد يعطيه فرصة للتفكير من جديد .

وتمتمت الزوجة : إن ما تفعله هو دائماً عين الصواب .

فأردف : وأنا لا أستغنى عن ربيع، إنه ساعدى الأيمن، ولا يمكن تهديده، بحرمانه من الميراث . ثم لا تنسى أن إخوته قد نالوا حظهم من التعليم الذى حُرم هو منه فأقل ما يمكن أن أظهر له عطفى حتى لا تمتلىء نفسه بالكراهية نحوى، ثم لم تزل أمامنا فرصة للتفكير .

والتفت إلى زوجته الدميمة وقال : أنا لم أرَ سكينة هذه، هل صحيح ما يشيعونه عنها من أنها جميلة وذكية؟

فهمست : تربّت فى الشقاء والعذاب .

- يقال إنها فاتنة .

- وما شأنك أنت؟

- مجرد سؤال يا امرأة .

- إنها امرأة مثل كل النساء .

قال ساخراً: مثلك مثلا؟

ثارت فى وجهه قائلة : تشبهنى بهذه الجربوعة؟

- معذرة .

- أنا بنت الأصول، بنت الأكابر . . ماذا جرى لعقلك؟

- حقك عليَّ .

وسادت فترة صمت، قالت الأم بعدها : لو تزوجها ربيع فلن أدعها تعيش معنا فى بيت واحد .

- أتغارين قبل الزواج؟

- بل أربأ بنفسى من أن أعاشر دنيئة مثلها . إن أهلها من أحقر وأفقر أهل القرية .

- أمرك يا ستى .

***

ويمتلئ ربيع سعادة وحيوية، ويتردد بين البيت والغيط فى خفة الطائر المرح، ويخيل إليه أنه لا يمس الأرض بقدميه، بل يحلّق فى سماء حلوة زرقاء، توشيها سحب قليلة بيضاء كاللبن الحليب، تزيدها روعة وبهاء، ولا يكاد يلقى نظرة إلى فدادين القطن الشاسعة، كان لا بد أن ينظر إليه بإمعان . . إن النكبة توشك أن تحل، فالحشرات قد أصابت الزرع الأخضر، والروائح الكريهة تملأ

الحقول، والفلاحون يضعون أيديهم على قلوبهم إشفاقًا وخوفًا، والحاج عبد الودود لا يفكر إلا فى الأرض التى زرعها لحسابه. إنه لا يفكر فى مأساة الفلاحين ولهذا أخذ يثور فى وجه ربيع ويتهمه بالإفساد والإهمال.. لماذا يا ربيع لا تدأب على جمع الإصابات؟ لماذا يا ربيع لا تهتم بشراء المبيدات الحشرية؟ لماذا أيها الغبى؟ أعرف أن سكينة قد سلبت عقلك.. أتبتسم أيها المخبول؟ يجب أن ترد على كلامى.. هل أصابك مس من الجنون؟ وتنطفىء الابتسامة على ثغر ربيع.. ويجيب متلعثماً «النكبة عامة» إنه بلاء الله، فيثور أبوه: لا تتكلم عن الله أيها الماجن.. تكلم عن خيبتك وعن المرأة التى أفسدتك.. آه.. لكم أتمنى أن يجروك إلى الحرب الدائرة.. أن يأخذوك كى تسحقك قنبلة من القنابل التى يرميها جنود هتلر.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يفاجأ الحاج عبد الودود رضوان بإشاعات أزعجته أيما إزعاج.. إن إنقاذ القطن من الإصابة أمر عسير، ولهذا أخذ الفلاحون المستأجرون يتكلمون عن قيمة الإيجار.. هم يعرفون أن الحاج يضع الإيجار الذى يروق له فى العقود الموقع عليها منهم. وهم يعرفون أنه لا يرحم.. ولهذا ساورتهم الشكوك وأرّقهم الخوف والقلق.. مستحيل أن يقسو عليهم فى تقدير الإيجارات، وكيف يدفعون ما يطلب منهم وقد تلف محصولهم الرئيسى؟..

ويهز الحاج عبد الودود رأسه فى إصرار ويعلق: هؤلاء المجانين ماذا ينتظرون؟ لا بد أن أحصّل قيمة الإيجار كاملة؟.. إن كانت

الكوارث قد حلت بمحصولهم فلست أنا المسؤول عن ذلك، ولماذا لا يذكرون المحصول الجيد فى العام الماضى؟ . . لسوف أنال الإيجار كاملا رضوا أم أبوا، والحق فى جانبى.

أما ربيع فهو لم يزل سابحًا فى حلمه الجميل، لقد عاش طول عمره حياة الكدح والجفاف لا يفكر إلا فى الزرع والرى، والمحصول وماء الترعة، لكن عواطفه قد انطلقت فجأة من عقالها، وتفتحت له الدنيا عن جمال رائع، وصور خلابة، وعن إمكانات لا توصف من السعادة والبهجة . .

***

انطلق ربيع إلى سكينة ليروى لها كل شىء، لم يخجل من التصريح لها باعتراض أبيه بادئ الأمر، ولم يعتصم باللياقة وهو يعدد لها أوجه الاعتراض. . كان يعتقد أنه سيزيد فى نظرها رجولة وكفاءة، وسيعلو قدره أضعافًا مضاعفة. . لم يكن يعتقد أن مثل تلك الصراحة سوف تجرح كبرياءها، وتملأ قلبها بالحقد تجاه أبيه. . لكنه لم يكن يستطيع أن يكتم شيئًا، كان ساذجًا فيما يتعلق بمسائل القلب والنساء، بقدر ما كان خبيرًا واعيًا بمشكلات الزراعة.

ومع ذلك فقد ابتسمت سكينة وكافأته بنظرة حانية تغلغلت فى كيانه، وسرت فى عروقه بالنشوة الجميلة، فترنح كالسكران، وهتف: ليست هناك قوة فى الوجود تستطيع أن تفرق بيننا.

- ولا أبوك؟

فقهقه : ولا الدنيا كلها .

وراودته وهو ينطق بهذه العبارة أحلام الفارس القديم «أبى زيد الهلالى» فرفع هامته وقد أشرقت ملامحه بأقصى ما يمكن من البهجة .

وهمس فى عنجهية : أنا ربيع والأجر على الله .

فربتت على زنده الضخم فى رقة غير معهودة وقالت : تعيش لى يا حبيبى .

فارتجف جسده كله ، وارتعشت شفته السفلى ، وسادت وجهه حمرة طارئة ، وهمّ أن يفعل شيئًا ، لكنه لم يستطع ، إن قوى خفية تقف بينه وبين الانطلاق ، لم يتعود هذه المواقف المتوترة ، ولم يجرؤ مرة أن يلمس فتاة عالية القدر ، فاتنة الجمال كهذه . . لم يمارس فنون الغزل قبل ذلك ، هو يذكر أنه كان ينتزع كل شىء فى الغيط ، فى مرات نادرة كان يصفع الفتيات المسكينات أو يقرصهن فى قسوة أو يركلهن كلما شعر بنوازع خبيثة نحوهن ، أما سكينة فهى غيرهن .

ونفث عن الحمى التى تشتمل فى كيانه بقوله : يجب أن نتزوج بأقصى سرعة .

أرخت أهدابها فى دلال ، وأطرقت حياء ، ثم قالت : الظروف لم تتهيأ بعد .

- ماذا بعد موافقة أبى؟

- يجب أن يقتنع عن رضى . . يجب ألا نبدأ حياتنا الزوجية على أساس من الإرغام والقهر. كل ما يهمنا أن تكون موافقته عن رضى كامل.

- أبى لا يعجبه العجب.

- دع الباقى لى. . أعطنى فرصة كى أسوى الأمر على وجه يرضى الجميع.

- ماذا ستفعلين؟

- ستعرف كل شىء فى حينه.

وتناوشته شكوك طارئة، ودبت فى قلبه نوازع الخوف شأن كل محب ساذج قليل التجربة. وخيل إليه أن هناك مَن يحاول أن يختطف محبوبته منه، وصور له الوهم أحداثًا مزعجة لا أساس لها من الصحة، فقال فى ضيق: أهناك رجل غيرى؟

فشهقت فى استغراب، ودقت على صدرها الناهد، وهتفت: يا خبر! أنت سيد الرجال. أنت دنياى يا ربيع.

فاتسعت ابتسامته، ونزل برد السكينة على قلبه، وعاودته أحلام الفارس القديم وتمتم:

- اللهفة الشديدة تجعلنى لا أحسن التصرف أو الكلام.

- ليس فى قلبى إلاك.

ولمست يده الضخمة الخشنة يدها اللدنة، وتمنى فى تلك

اللحظات أن يعتصرها بين ذراعيه القويتين . . أن يأكلها، لكن الحواجز غير المنظورة والتى تسور روحه وإرادته وقفت حائلا بينهما .

وعادت سكينة تقول : الحق أن أباك رجل طيب .

- ماذا تقصدين؟

- كنت أعتقد أنه سيرفض على طول الخط .

- لماذا؟

- أنت تعلم أننا عائلة مساكين ، العين لا تعلو على الحاجب . . من نحن بالنسبة لكم؟ . . عندكم الأرض والمال والموظفون . . وصلاتكم بالأكابر . . ونحن على قد حالنا ، (لا تقاطعنى) دعنى أقول ما قد يقوله الناس فى غيبة منا . . أعرف بأن أسعد ما كنت أتمناه هو أن يكون ربيع زوجى، إنها أمنية غالية وكبيرة . . قد تكون وقاحة منى، ولكن ماذا أفعل فى قلبى؟ القلب وما يختار يا ربيع (هكذا قالوا) . . لو استطعت التحكم فى نفسى لمنعتها من مجرد التفكير فى الزواج منك ، لكننى مشلولة الإرادة ، لا أرى إلا أنت . . الحياة بدونك لا طعم لها . . مكتوب على الجبين يا ربيع .

وكم كانت دهشة ربيع عندما رأى الدموع تترقرق فى عينيها ، ووقف حائرًا مسمرًا لا يدرى كيف يتصرف ، بل أوشكت الدموع أن تفلت من بين أهدابه هو الآخر ، لشد ما أبهجته هذه الكلمات ورفعته إلى مصاف الملائكة ، إلى سماء لم يكن يحلم بصعودها

قط . . لم يستطع مجد أبيه ولا الأرض الواسعة التى ينطلق فيها بحصانه، ولا مراكز إخوته ومناصبهم . . لم يستطع كل هذا أن يصعد به إلى تلك القمة الشامخة الرائعة التى أوصلته إليها كلمات سكينة، وأفاق من دهشته على ذراعين عاريين بضين يطوقان عنقه الغليظ الأسمر الذى لوحته شمس الحقول الساطعة، وأخذت تمسح وجهها المبلل بالدموع فى جلبابه الصوفى الخشن، وأحاط ربيع كتفيها النحيلتين، ثم أخذ يربت عليها وقد هذرت الدماء فى عروقه، وهدر :

- أنت عندى أعظم من أى شىء، وكل مَن يحاول أن يفرق بيننا فسوف أسفك دمه حتى ولو كان أبى .

وتخلصت فى لباقة ووداعة آسرة، وهمست وهى تجفف دموعها : يفعل الله ما يريد .

- كونى واثقة مما أقول .

تنهدت قائلة : إن أباك يحبك بحق .

- كيف؟ . .

- موافقته المبدئية لا تعنى غير ذلك .

فتأفف من العودة إلى ذكر أبيه وقال : يجب أن تفهمى أننى رجل، وأننى حر، ولا يمكن أن تقيدنى آراء أبى ولا ثراؤه، ولا تقاليد العائلة . إن زواجى أمر يخصنى وحدى .

لشد ما أسعدتها هذه الكلمات، إن تجربة الحب قد صنعت من ربيع رجلا جديداً . . بل إنها قد أنطقت لسانه بالحكمة . . ليس هذا الذى تراه هو ربيع العام الماضى . . ربيع الجبان الخائف. لقد أصبح رجلا يدوس على أشياء كثيرة كانت أشبه بالمقدسات، وهمست وقد عادت الإشراقة إلى عينيها : ليحميك الله لى، يا أعز حبيب، يا أغلى من روحى .

***

جلال الدين تلميذ (هلفوت) -هكذا يقول عنه الحاج عبد الودود- صعد منبر المسجد الكبير عندما غاب الإمام لعذر قهرى . وأخذ الطالب الشاب يصول ويجول فوق المنبر، ويهاجم الذين لا يبرون بالفقراء، وينعى على الأخلاق الفاسدة، وعلى الظلم الذى ملأ السماء والأرض حتى وقع العالم فى حرب طاحنة لا يعلم إلا الله مداها . . حرب على رأسها هتلر الذى أصبح اسمه يتردد على الألسن أكثر مما يتردد اسم الله . ثم عاد الطالب الأزهرى إلى الحديث عن الآفات التى أصابت القطن، وعن أصحاب الأرض الذين يأبون أن يتهاونوا قيد شعرة فيما قرروه من إيجارات . واعتبر الحاج عبد الودود مثل هذا الكلام سبًا علنيًا وتشنيعًا رخيصًا يمس كرامته ويحط من كبريائه . فما كان منه إلا أن قام من مكانه ومشى صوب المنبر يشق الصفوف، ثم اقترب من الخطيب الشاب وصرخ : كفى .

فلم يكترث جلال الدين بل ازداد حماسه، وانطلقت الكلمات القاسية من فمه كالطوفان، فعاد الحاج عبد الودود يصيح: انزل يا ولد.

وساد المسجد صمت رهيب، وهدر الشاب: ما كنت أهبط من مكانة أجلسنيها الله.

- لا داعى للفلسفة.. انزل.

- هذا بيت الله لا بيتك.. وحق هؤلاء المسلمين أكثر من حقك.

دق الحاج بيده المتشنجة على خشب المنبر: انزل يا ابن الكلب.. أنت تسب أسيادك.

وعاد الشاب يقول فى ثورة: الدين النصيحة، وما قلت إلا ما أعتقد أنه حق.

- لعب عيال.. أنت تجنى على نفسك وعلى أهلك.

فصاح الطالب: سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل أتى إلى إمام ظالم فنهاه، فقتله.

وساد اللغط والضجيج، ووقف الجالسون، وهرول حضرة العمدة نحو المنبر، يحيط به مشايخ القرية، وشيخ الخفراء والخفراء.

وابتسم العمدة قائلا: لا تعكر دمك يا حاج عبد الودود.

- لن أسكت حتى تجرّوه من فوق المنبر، وترموه على أم رأسه فيدق عنقه.. إنها لمهزلة. أمثل هذا الطفل الغرير يشوّه سمعتنا ويسخر منا جميعًا من فوق ذلك المكان المقدس.

وجمع العمدة الخفراء، وأصدر إليهم أمره: أنزلوه.

وجرى الخفراء نحو باب المنبر . . لكنهم فوجئوا بجدار سميك من الرجال الأشداء من فلاحى القرية، تصدوا للخفراء والعمدة والحاج عبدالودود.

وقال أحد الرجال فى حزم: لن ينزل.

واندفع الحاج عبد الودود صوب باب المنبر موقنًا أنه لن تكون هناك قوة تستطيع منعه من إنزال الشاب، لكنه اصطدم بالجدار السميك . . بالرجال الذين سددوا إليه نظرات المقت والإصرار واللامبالاة.

وعادت الكلمات الصارمة تصدم سمعه: لن ينزل.

وشحب وجه الحاج وارتجفت أطرافه، وقال وهو يصر على أسنانه: مَن؟ سرحان؟ عبد الفتاح؟ يا أوباش! أنتم يا مَن تزرعون أرضى وتعيشون على إحساناتى؟ . . لا أصدق عينى . . صحيح . . اتق شر مَن أحسنت إليه.

وقاطعه الخطيب الشاب جلال الدين قائلا وقد تضاعفت حماسته: المال مال الله، وما أنت إلا مستخلف فيه، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

كان موقفًا رهيبًا هزَّ أعصاب الحاج وأحنقه أيما حنق، وتمنى فى تلك اللحظات العصيبة أن لو أوتى قوة خارقة فمزق أجساد هؤلاء

الرجال الذين يعترضونه ، وشرب من دمهم حتى تبرد النيران التى تصرخ فى قلبه .

وعاد الحاج ينظر ، وكم كانت دهشته عندما رأى الجدار الآدمى بينه وبين المنبر قد ازدادت كثافته ، ورأى عشرات العيون تنفث الشرر ، ورأى الثغور المزمومة المتوترة ، بل إنه قد خيل إليه أنه يرى الأنياب . . أنياب الوحوش الجائعة تكمن خلفها فى ترقب .

وحانت منه التفاتة إلى العمدة والمشايخ والخفراء وأعيان البلد فوجدهم مثل ذرات حقيرة تائهة فى هذا الخضم الهائج ، بل رأى بعضهم يتزاحمون إلى الصفوف الخلفية . . قرب باب المسجد ، وعلى وجوههم المذعورة سمات الرغبة فى الفرار . .

ابتسم الحاج عبد الودود ابتسامة شاحبة ، وكشفت ابتسامته عن أنياب وأسنان صدئة ، وصدر منه صوت كالفحيح : ليس من الحكمة أن أقف موقف الند من هؤلاء ، لكن ثقوا أنكم ستتلقون درسًا فى الأدب لن تنسوه مدى الحياة .

ثم استدار باحثًا عن حذائه ، وقال للعمدة ولغيره من أعيان البلد : هيا . . ودعوهم فى المسجد لينبح خطيبهم كالكلب ، ولسوف نهدّه على رؤوسهم .

وانسحب بضعة نفر لا يزيدون على العشرين عددًا ، وبدا المسجد وكأنه لم ينقص أحدًا ، ما زال مكتظًا بالرجال ، وانقطع اللغط . وعاد الخطيب الشاب يتحدث عن دعوة الإسلام ، وعن

شعارات العدالة والحرية والإخاء، وعن المرأة التى ردت عمر، خليفة الإسلام، إلى الصواب، فابتسم لها فى رقة وتواضع وقال: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ثم نودى للصلاة.. فصلّوا.

وقبل أن ينصرفوا كان المسجد محاصراً بعدد كبير من رجال الشرطة وفدوا من المركز وعلى رأسهم المأمور والحاج عبد الودود والعمدة، والخفراء يسيرون منزعجين فى ذيل الموكب.. وهمّ المصلون بترك المسجد.. كان الحاج عبد الودود يقف بالباب، ويشير بأصبعه إلى أى رجل.. فينقض عليه العساكر ويضعون الحديد فى يديه، وسرعان ما يساق إلى عربة الشرطة ويغيب فى داخلها، وانصرف باقى الناس واجمين.

لكن الشىء الذى أزعج الحاج عبد الودود وملأه حنقًا وغيظًا وكاد يذهب بعقله هو أن الخطيب الشاب لم يعثروا له على أثر، لكأنه فص ملح وذاب.

وأخذ الحاج يجرى هنا وهناك باحثًا عنه.. إنه يتدحرج بعوده الممتلئ القصير، يسبقه أنفه المعقوف، والعمامة البيضاء راسخة فوق رأسه الكبير.. يلهث بصوت مسموع.. لكن الخطيب اختفى.

وهز الحاج رأسه فى مرارة حاقدة وقال: إذن فلتقبضوا على أبيه حتى يسلم الولد نفسه.

●●●

ولم يعد لقريتنا حديث غير ما جرى فى المسجد . . إنه حادث فريد فى نوعه . . لعل بعض الأفراد قد تصدوا فى مرات نادرة للحاج عبد الودود وأمثاله ، لكن الذى جرى اليوم كان تمرداً جماعيًا- كما سماه حضرة المأمور- وما أخطر مثل هذا التمرد فى أيام الحرب ، حيث الأحكام العسكرية معلنة .

وسارع باقى أهل القرية بترحيل أولادهم التلامذة إلى «البنادر» حتى لا يتعرضوا للأذى ، وباتت أسر المقبوض عليهم يبكون ويلطمون الخدود .

إنهم لا يجدون ما يشترون به كيلة من الذرة فأنى لهم بتوكيل محام فى مثل هذه القضية الخطيرة؟ وكيف يتصدون للحاج عبد الودود وهو يملك المال والشهرة ، ويستطيع أن يوكل عشرات المحامين؟ ألا إنها لكارثة كبرى حلت بقريتنا على حين غرة . . كارثة لم يكن يتوقعها أحد .

وفى يوم الجمعة التالى كان المسجد يبدو خاويًا ، وفى الصفوف الأولى يجلس العمدة وبعض رجال الشرطة والحاج عبد الودود ، وصعد شيخ عجوز المنبر ، وأخذ يتحدث بنبرات مرتعشة واجفة عن

طاعة أولى الأمر، لأن طاعتهم من طاعة الله، ولم يكن هناك أحد من الفلاحين بقادر على أن يتابع موضوع الخطبة.

وكاد المأمور يستلقى على ظهره من الضحك حينما سمع الخطيب فى آخر الخطبة يدعو للسلطان، ولعله السلطان المرحوم عبد الحميد، وأن ينصر الله عساكره، ويعز جنده.

***

لم يكتف الحاج عبد الودود بانتقام الحكومة له، فعلى الرغم من تواتر الأخبار بأن فلاحى قريتنا قد ذاقوا الأمرين فى المركز، وضربوا بالسياط والعصى الغليظة على أرجلهم وعلى أجسادهم، هذا عدا الصفعات والركلات التى لا حصر لها، وعلى الرغم من أنهم تُركوا بضع ليال دون أن يأكلوا أو يشربوا إلا التافه الذى لا يقيم الأود، ومع أنهم قد ألقى بهم فى حجرات قذرة مبللة، حشروا فيها حشراً، فإن الحاج عبد الودود لم يكن يكتفى بذلك، إنه يعتبر الإهانة التى وجهت إليه فى المسجد أفظع من أن يمحوها السجن أو التعذيب. لهذا جلس الحاج فى حجرة منعزلة، واستخرج العقود الموقعة «على بياض».. وأخذ يضع فيها ما يشاء من المبالغ كقيمة للإيجار- والقانون فى صفه- إنها وسيلة أخرى من وسائله الجهنمية التى سيدأب عليها منذ الآن. وما إن فعل ذلك حتى رضيت نفسه بعض الشىء.

ودخل عليه ولده ربيع باكيًا، وقال الحاج فى جفاف: ماذا وراءك؟ لعلك تريد التعجيل بالزواج من سكينة؟

- بل جئت أخبرك بأن إصابة القطن بالغة. ولن نجنى منه شيئًا يذكر هذا العام.

- وقطن الآخرين؟

- أسوأ حالا منا.

ابتسم الحاج ابتسامة شاحبة: هذا يثلج صدرى.. المهم ألا يجنى هؤلاء الأوباش من قطنهم إلا الحطب.

وصمت ربيع برهة ثم قال وهو مطرق الرأس: أبى.

- أعرف أنك تود الحديث فى ذلك الموضوع السخيف. يجب أن تفهم أن هذا الوقت ليس وقت زواج.

- ما قصدت ذلك.

- تكلم إذن.

- إنى خائف.

- ممن أيها النعجة؟

- الفلاحون ينوون بنا شراً.

- إنهم أحقر وأجبن من أن يرفعوا رؤوسهم.

- إنى أعى تمامًا ما أقول.

قال أبوه فى سخرية: وماذا تقترح؟

- الصلح خير.

- آه . . كنت أحسبك نسخة من أبيك، فإذا بك جبان رعديد مثل أمك . . هيه . . تريد أن نطاطىء رؤوسنا ونعتذر لهم؟ . . ألا فاعلم أيها المغفل أن كسر أعناقهم، وتمريغ أنوفهم فى التراب هى السياسة المثلى، ولو لم نفعل ذلك فسيأكلون لحمى ولحمك، إنهم لا يستقيمون إلا بالقهر والعنف.

وأخذ الحاج يجفف عرقه، وقد ملأ الغضب قلبه، ثم تمتم: منذ أن تعرفت على تلك التى تدعى سكينة وأنت فى حال لا تسر . . امش فى طريقك مرفوع الرأس واضرب بالحذاء رأس من تسول له نفسه أن يلمزك بكلمة. أنت ربيع ابن الحاج عبد الودود رضوان . . هل نسيت نفسك، وأصلك؟

ولم يبلغ الضيق بقريتنا مداه إلا عندما علمت أن رجال الشرطة قد قبضوا على الخطيب الشاب جلال الدين فى مدينة طنطا، فى صحن المسجد الأحمدى، وساقوه مغللا - وبأمر وزير الداخلية- إلى المعتقل تمهيداً لمحاكمته بتهمة إثارة الفوضى والشغب ومخالفة الأحكام العرفية . . ويومها جلس الحاج عبد الودود أمام دواره الواقع بين البيت والحديقة . . وأخذ صوته يلعلع، ويطلق النكات والقفشات، ثم يعود ويتحدث حديث الحكيم البصير بأمور الدنيا، ويرمى الفلاحين المتمردين بالتفاهة، والبطر بالنعمة، وبعقر اليد التي تقدم إليهم الإحسان، ولم يحاول مرة واحدة أن يناقش القضايا الخطيرة التى أثارها الشاب الضحية.

وفى المرة التى يريد أن يمس الموضوع فيها مسًا خفيفًا يثور ويقول: لست أدرى لماذا لم يحاول الفلاحون أن يضيفوا بضعة جنيهات زيادة على إيجار الفدان فى المواسم التى يجود فيها المحصول بكميات كبيرة؟ .. أعندما تصيبهم الآفات ينشدون الرحمة، وإذا ما أغدق الله عليهم الخير العميم اعتصموا بالصمت؟ ثم ذلك الفيلسوف الضال الذى يتحدث عن العدالة.. آه لو كان من ملاك الأراضى؟ إذن لبلغت قسوته منتهاها.

ويتكاتف أهل القرية خلسة، ويبلغون الأمر لرجال النيابة على حقيقته، ثم يعملون سراً على توكيل محام من الدرجة الثالثة كى يدافع عن المقبوض عليهم، ولا تمضى أيام حتى يخرجوا بعد أن أخذت عليهم التعهدات اللازمة بألا يشتركوا فى شغب مستقبلا وألا يعترضوا رجال الإدارة.

ويخرج الرجال منكسى الرؤوس.. بعضهم يفكر فى ضياع العدالة على أيدى حماتها، ويرسخ ليأس مرير، وبعضهم قد زادته القسوة التى عومل بها إصراراً وتهوراً، وآخرون استسلموا لتفكير عميق عقب المأساة التى حلت بهم، فما كان من المعقول أن تذهب السياط التى شوهت جلودهم سدى، ولا يمكن أن ينسوا أيام الرعب والظلام ورائحة العفن والأقذار فى حجرات السجن الضيقة بالمركز.

ويعلق الحاج عبد الودود على خروجهم بقوله: لقد تلقوا درسًا لن ينسوه مدى الحياة.. هناك طائفة من الناس لا يرجعون إلى

صوابهم إلا بالإهانة والعقاب الصارم، هؤلاء الشبان المجانين يظنون أن خطبة تافهة من فوق منبر سوف تغير حال الدنيا وتجعل من العبيد سادة . . لو كانت بضاعتى الكلام لأفلست منذ زمن بعيد . . هيه . . من لا يعلّمه أبوه وأمه تعلّمه الأيام والليالى .

وينتشى الحاج عبد الودود طربًا وهو يرى والد جلال الدين يأتى إليه كسير النفس دامع العين مهلهل الثياب حافى القدمين، ويضرع إليه قائلا : يا حاج عبد الودود . . أنا فى عرضك . . أنا فى جاه رسول الله . . ابنى مسكين طائش . . لماذا فعلت به ذلك؟

والغريب أن الحاج يشمخ برأسه فى كبرياء، ويستشهد بآيات القرآن الكريم ويقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨]. ومن يزرع الشوك لا يجنى الورد يا مسكين .

- كان فى إمكانك يا حاج أن تلقنه بنفسك درسًا فى الأدب . . إنه مثل ابنك . . وتأكد أننى آنذاك سأكون سعيدًا . . إنه لشرف كبير أن تؤدبه .

فأبدى الحاج اشمئزازه وقال : مثل ابنى؟ . . إنك تخرج عن حدودك . ومن قال لك إننى على استعداد لأن ألوث يدى بضربه .

فركع الفلاح على ركبتيه، وأمسك بيد الحاج قائلا : هات يدك أقبلها . أنت تستطيع أن تنقذ ولدى .

أشاح الحاج بوجهه وقال: لقد خرج الأمر من يدى، فلو تنازلت عن حقى، فإن للحكومة حقًا لا يمكن أن تتنازل عنه.

- وما شأن الحكومة بنا؟

- ابنك يهدد أمن البلد.

وتذكّر ما قاله ولده.. لقد كان يتحدث من فوق المنبر عن الرحمة والعدل والأخوة، ويدعو الأغنياء للبر بالفقراء، وكان الرجل وقتذاك سعيدًا بكلمات ابنه، يتشربها فى شغف ولذة، وينظر إلى ولده فى ذلك المقام العالى الذى لا يقعده إلا الأفاضل والعلماء، فينشرح صدره. وما كان يتصور قط أن مثل تلك الكلمات الحلوة ستغضب الحاج عبد الودود وتهدد أمن البلد، أتراه كان جاهلا ولم يفهم تمامًا ما وراء كلمات ولده؟..

وقال الرجل: أنا لا خبرة لى بمثل هذه الأمور يا حاج، كل ما أعرفه أن فى إمكانك أن تصفح عن ولدى، وأن تعيده إلى دار العلم. إنه يتعلم الشريعة وعلوم الدين يا حاج، وستنال ثوابًا عظيمًا إذا ما عفوت عنه.

تململ الحاج، وقال فى ضيق: لا تضيع وقتى ووقتك. بالاختصار يجب أن تبحث لابنك عن محام شاطر. المسألة كبيرة وخطيرة يا ابنى.. آه.. ليتكم تتعلمون.. لكن عقولكم كالأحذية.. أنتم وبهائمكم فى صعيد واحد.. لا فرق بينكما.

وعاد الرجل يجر أذيال الخيبة، والدموع على خديه، يتعثر فى طريقه المترب المليء بالأحجار وثيران الحاج ينطلق خوارها، ونهيق حميره يصم الآذان، وعتمة المغرب توشح المبانى وأشباح البشر بوشاح قاتم يثير الأسى والأحزان.

***

حينما علمت سكينة من ربيع أن أباه متوعك بعض الشيء أظهرت سرورًا غريبًا، وقف ربيع أمامه مندهشًا، تمتمت: «لقد حان الوقت».

ولم يفهم ربيع ماذا تقصد حبيبة قلبه الفاتنة، لكنه شعر بانزعاج وهو يراها تطرب لمرض أبيه.. أتراها تتمنى موته؟.. لو كان الأمر كذلك، فهى إذن امرأة طامعة لكن يا لها من ساذجة.. كيف يخفى عليها أن إظهار مثل هذا الشعور أمامى يضر بمنزلتها عندى؟

وقال ربيع: أنا لا أفهمك.

فقرصته مداعبة وقالت: لأنك عبيط.

- إيه؟

قالت سكينة: كنت أبحث عن فرصة مناسبة للالتقاء بأبيك، أنا واثقة أن مقابلة واحدة معه ستجعله يرحب بزواجنا. سنكسبه إلى صفنا، وهذا يجعل مستقبلنا أفضل، فنتزوج دون متاعب أو عقبات ونعيش فى وئام وسلام. لهذا ترانى سعيدة لوعكته لأنى سأزوره الليلة.

هتف فى استغراب: تزورينه.. الليلة؟ مستحيل.

- لماذا؟

- سيعتبر هذا جرأة، و.. وقلة أدب.

- الله يسامحك يا ربيع.

لا أقصد إهانتك. أنا أتكلم بمنطقه، ولا أوافق على هذه الزيارة.

فأبدت غضبًا مصطنعًا، ثم غمزت بإحدى عينيها فى إغراء وقالت: لا تنس أننى حرة، وأننا لم نتزوج بعد، وأبوك لم يرنى من قبل، وليس من اللائق أن يأتى ليخطبنى لك قبل أن يرانى.

وضغطت على يده فى ود، فسرى الخدر فى أنحاء جسمه الضخم، وتاه.. تاه فى ذلك العالم السحرى الأريج الغامض، والنكهة الشهية، فتمتم دون وعى: أمرك.. يا ست الكل.

***

كانت نزلة خفيفة تلك التى ألزمته الفراش، ولعل الأحداث التى جرت والهزات العصبية العنيفة التى تعرض لها قد أنهكت قواه وأرقته بعض الليالى فآثر الاعتكاف للراحة والهدوء، حتى يعاود حياته الصاخبة المليئة فى نشاط وحيوية عرف بهما.

وهمست زوجته المذهولة فى أذنه قائلة: أتى بعضهم لزيارتك.

- من؟

- لا أعرفهم . . كلهم من الحريم .

ضحـك الحاج وتمتم : الله يفتح نفسك . . أدخلوهن على الفور يا امرأة .

ودق قلبه حين رآها ، وتملى ملامحها فى دهشة ، كانت تلبس ثيابًا ضافية ، وتحيط وجهها القمرى بشال أسود ، فيبرز فتنتها كأروع ما تكون الفتنة ، وحاول أن يجلس فى سريره ، لكنها أسرعت إليه وأمسكت بيده فى رفق مقسمة بالله ألا يغير ضجعته المريحة .

وبدا على وجهه الاهتمام الزائد ، وأظهر من ضروب الاحترام والترحيب الشىء الكثير ، وأخذ يسأل نفسه : من تكون؟ بنت فلان الموظف؟ بنت الحاج سعيد . . بنت . . بنت؟ . .

لكنها قطعت عليه حيرته حينما قالت : طبعًا لا تعرفنى ، أنا سكينة بنت الشيخ عبد الحميد عوض .

وهتف : سكينة؟

- أجل . . انزعجت جدًا عندما علمت بمرضك . . كان أبى يزمع زيارتك لولا سفر مفاجئ ، فآثرت أن أحضر أنا وماما .

وكانت سكينة تطلق على زوجة أبيها «ماما» .

وقال الحاج عبد الودود لنفسه : آه . . فهمت . . إذن لم تأت العفريتة لزيارتى إلا بعدما فكر ربيع فى الزواج منها . . هذه زيارة غير بريئة . . ليست لوجه الله على أى حال .

وعاد ينظر إليها من تحت لتحت، ثم أخذ يحادث نفسه صامتًا لكنها «زيارة ممتعة» بدون شك. . آه يا ربيع يا بن الـ. . . ذوقك جميل.

وقال الحاج: أنتم شرفتمونا. . يا أهلا وسهلا. . لقد شفيت عندما رأيتكم.

ثم ضرب بكفيه مصفقًا: شربات يا بنت.

وتندى جبينه بالعرق، وأخذ صدره يعلو ويهبط، وسحبت سكينة منشفة بيضاء واقتربت منه في جرأة، وأخذت تجفف له العرق، وعينه المدهوشة تسترق النظرات من حيث لا تشعر. . لشد ما هي حانية رقيقة.

وعلى الفور تذكر زوجته الدميمة الجادة. . زوجته التي لم تدلله مرة واحدة في حياته ولم تمسح عن جبينه مطلقًا في أي أزمة من الأزمات. . حتى ولده الطبيب لم يعامله بمثل هذه الرقة مطلقًا.

فتمتم الحاج: متشكر يا ابنتي، لماذا تتعبين نفسك؟

- لا تفكر في ذلك. يبدو أن الحرارة مرتفعة بعض الشيء. إن عصير الليمون وقرصين من الأسبرين يفيدان جدًا، هل جربت؟

فقال مداعبًا: لا أميل إلى الليمون، أنا من عشاق القهوة السادة. حتى اسألي خالتك أم ربيع.

قالت سكينة بصوت منغوم حلو: بل ستشرب الليمون من يدي، وسيشفيك الله على الفور.

وعاد يفكر فى زوجته الملعونة وفى السنين الطويلة التى قضاها معها دون أن تقترح عليه أن يشرب كوبًا واحدًا من الليمون . . شربة الفراخ هى العلاج الوحيد لديها فى مثل هذه الحالات . . هنيئًا لك يا ربيع . . عندك حق يا (. .) . لماذا لا يستمتع وينعم بمباهج الحياة؟ آه لو تعــود الأيام إلى الوراء . لكن يجب ألا أفكر فى مــثل هذه الأمور إن زوجتى الملعونة لها حاسة غريبة ، لو علمت ما أفكر فيه لعملت ما لا يعمل . . آه . . عوضنا على الله . . دنيا .

- تصورى يا سكينة لم أعرفك مطلقًا . أذكر أنى رأيتك وأنت طفلة صغيرة فى السابعة من عمرك . . كنت تذهبين إلى المدرسة ، وكنت تلبسين فستانًا أحمر ، لكن لم تكونى على هذه الصورة من الجمال .

فأشاحت بوجهها فى دلال وقالت : عمى .

- يا بنت الشيخ عبد الحميد .

- أريد أن أعصر لك الليمون .

- صحيح كل شىء يتغير . . ياه . . آه يا ظهرى .

فاقتربت منه فى لهفة متقنة : سلامتك يا عمى .

لحظات بارعة غنية قضتها سكينة إلى جواره ، تغدق عليه من حدبها ورعايتها ، وتشعره بحنانها وخوفها عليه ، إنها مشاعر جميلة طالما حلم بها واشتاق إليها . . كثيرًا ما شعر بالظمأ الشديد إلى مثل

تلك اللمسات والكلمات المواسية الرقيقة . . لم يرو شيء ظمأه فى الوجود مثلما ترويه سكينة بتصرفاتها . . عندك حق يا ربيع . لا يمكن أن أعترض على زواجك . وسامح الله أمك يا ربيع ، أمك ترفض أن تعيش معها فى بيت واحد . . تغار من سكينة ، أما أنا فمصرٌ على أن تكون سكينة إلى جوارنا . إن وجهها السمح وكلماتها الرقيقة الهامسة تفتح مغاليق النفس ، وتهون من مشاق الحياة . ولم ينس الحاج سكينة وهى تضع السكر فى كوب عصير الليمون . . كانت تضع السكر بحساب ، وعندما اقترح عليها الحاج أن تكثر منه قالت : كل شيء يجب أن يكون بقدر ، السكر الزيادة كالسكر القليل ، وبين الاثنين شيء مضبوط . لكل عملية قانونها ، وأنا لا أحب مخالفة القانون .

وضحك الحاج ، ضحك حتى كاد يستلقي على ظهره . . جميلة ، ومدبرة ، وبارعة . ما كان أحوجنى إلى امرأة مثلها .

وعندما مال الحديث إلى المشكلة التى ثارت فى المسجد أعجبه منها قولها : أنت أكبر من أن تتعرض لمثل هذا الأمور ، دعهم ينبحوا كيف شاؤوا . . كلام طائر فى الهواء ، وعندما ينزل من فوق المنبر ينسى الناس كل شيء ، وما تلاقيه من متاعب ما هو إلا ضريبة النجاح والعظمة .

وابتسم الحاج وقال : أى عظمة؟ لقد شخنا . . يا الله حسن الختام .

فأردفت سكينة : اللهم صلى على النبى ، أنت شباب ، الدهن فى العتاقى .

وعاد الحاج إلى الضحك ، وأخذ يغمغم : الله يجازى شيطانك يا سكينة . . بنت عبد الحميد صحيح .

ورحلت الزائرة .

وبقى الحاج وحده ، ثم دخلت زوجته ، لم يفكر فى النظر إلى وجهها عندما قالت : هذه البنت ألعبان . إنها شيطانة .

قال فى نبرات ساخرة : ثم ماذا؟

- وأخاف على ربيع منها .

همس فى حنق : صحيح؟؟ طيب . . هيا وأعدى فنجانًا من القهوة . . القهوة السادة يا أم ربيع .

***

لأول مرة فى حياة الحاج عبد الودود يسأل نفسه : ما فائدة أن تكون غنيًا تملك المال والضياع والرجال؟ لو سأل نفسه قبل لكانت إجابته ببساطة : إن مجرد الثراء أمر لذيذ يبهج القلب ويدخل عليه السعادة . . المحتاج لا يمكن أن يستشعر السعادة الحقيقية الخالية من الشوائب ، ثم إن نظرات الحقد والحسد التى تلاحقنى لا تضايقنى بقدر ما تملأنى فخرًا . . أجل ، الثراء فضيلة ، فيه أملك كل شىء ، وعندما أملك كل شىء أشعر أنى حى ، حر ، ذو نفوذ أو كلمة مسموعة .

كان من الممكن أن تكون تلك هى إجابته . إن فهمه لكلمة السعادة أخذ فى التغير ، وملكيته لأى شىء مسألة فيها نظر ، فمن أجل الثراء تزوج تلك المرأة الدميمة الغنية .

لقد وسّع بزواجه منها رقعة أرضه ، وزاد فى ماله ، لكن فراغًا قاتلاً يملأ قلبه ، وحرمانًا من نوع آخر يحرق روحه ، فهل يمكن أن يكون سعيدًا فى ظل تلك المشاعر ؟

إن ثراءه يجر عليه بعض القلق ، ويرتبط بكثير من المنغصات يجعله يحمل قيودًا من لون غريب ، قيود تستشعرها روحه وإن لم تلمسها يداه .

حادث بسيط ممكن أن يكون تافهًا . . ألم ير فى حياته قط فتاة جميلة ذكية ؟

عيناه تقعان على الكثيرات طول حياته ، لكن زيارتها تختلف تمامًا عن كل ما عداها . . لعلها لحظة نادرة تستنير فيها بصيرة الإنسان وتستقبل معانى جديدة لم تكن تخطر على البال . . أى حادث تافه يعترض مجرى إنسان قد يكون له أعمق الأثر فى تشكيل حياته ونظرته إلى الوجود .

***

ولم يدر أحد ماذا يدور فى خلد الحاج عبد الودود ، إن صمته وشروده وتوتره لا تفسير له سوى الأحداث الجارية ، خاصة أن المزارعين رفضوا أن يدفعوا الإيجار كما حدده فى العقود الموقع عليها «على بياض» .

واحتجوا فى إصرار، إذ كيف يدفعون تلك المبالغ الباهظة وقد تلف المحصول، والحرب قد جرّت على الناس الويلات والفقر، وأزمة الرغيف تأخذ بخناقهم. وكان الفلاحون يقولون: لن ندفع، ليأخذونا إلى السجن، فهناك على الأقل سنجد اللقمة.

ومع ذلك فقد ثارت ثائرة الحاج عبد الودود، وهدد وتوعد، واتخذ قرارين غاية فى الخطورة. أولهما رفع الأمر إلى القضاء، والقانون بالطبع فى صفه. وثانيهما طرد الفلاحين من الأرض التى يزرعونها، على أن يتولى هو بنفسه زراعة أرضه. إن الآلات، كماكينات الرى والحرث وغيرهما، سوف تغنيه إلى حد كبير عن الأيدى العاملة ولسوف يزداد دخله، وأهم من هذا كله أن الفلاحين سوف يتشردون ويجوعون ويتلقون درسًا آخر قاسيًا لن ينسوه طوال حياتهم.

وهاجت القرية وماجت، ورفعوا العرائض إلى المسؤولين مطالبين بالتحقيق وبضمان أرزاقهم وأرزاق عيالهم، لكن هذه الشكاوى كان دائمًا مصيرها سلة المهملات.

إن القانون فى صفه فيما يتعلق بتحصيل قيمة الإيجار، والقانون فى صفه أيضًا فيما يتعلق بزراعة أرضه بنفسه، ورفض تأجيرها لأحد.

وأهل القرية المساكين بعد أن أدركوا حقيقة الوضع وقسوته وأوجسوا خيفة من المستقبل.. لم يجدوا غير باب واحد يطرقونه.. باب الحاج عبد الودود نفسه.. تكلموا مع ولده

ربيع . . أرسلوا الوفود إلى أبيه . . أخذوا يضرعون لشيخ الطريقة الصوفية ، وهو رجل مسموع الكلمة ، لعله يؤثر على الحاج عبد الودود حتى يخفف من غلوائه ويرحمهم بعض الشيء فى تسديد الإيجار أو تقسيطه ، ويترك لهم الأرض يزرعون فيها ، وسافر بعض الرجال إلى أولاده الموظفين كى يستنجدوا بهم .

لكن الحاج أصم أذنيه عن كل نداء . . كان يقول : إن التهاون فى مثل هذه الأمور يخرب البيوت . إن أنقصوا من الإيجار شيئًا فلن أستطيع أن أحصِّل منهم أى مليم بعد ذلك ، سيأكلوننى حيًا . وعندما كلمه شيخ الطريقة الشيخ عبد الباقى فى الأمر قال الحاج : يا ولى الله ، أنت رجل عيناك على الآخرة ، لا خبرة لك بشؤون الدنيا .

قال الشيخ عبد الباقى : الدنيا والآخرة طريق واحد يفصل بينهما جسر صغير لا يحتاج عبوره إلا لحظات .

ويبتسم الحاج عبد الودود قائلا : لكن ما حكم الشرع فيمن يراوغ ويماطل فى الوفاء بالالتزامات والعقود؟

- بالطبع هذا شيء لا يقره الشرع .

- إذن فلتقف خطيبًا بين هؤلاء الفلاحين ولتخبرهم عن فتوى الشرع فيما يفعلون . . أنا واثق أن الأرض ستميد من تحت قدميك . . سيثورون فى وجهك وسوف يرمونك بالتواطؤ معى والتنكر للعدل . هؤلاء الفلاحون لا يؤمنون إلا بما وافق هواهم . . شرعهم طمعهم يا شيخنا الجليل .

ويداعب الشيخ حبات مسبحته فى توتر، ويزداد شحوب وجهه، ثم ينظر إلى الحاج عبد الودود فى استغراب ويقول: هذا كلام يصلح لأن يقال أمام المحاكم.. كلام يمكن أن تخدع به القانون، أما الحقيقة التى تعرفها ويعرفها الجميع، هى أن عقودك باطلة. لقد انتزعت توقيعاتهم «على بياض» يا حاج عبد الودود. إنها باطلة، باطلة، ولو فرض أنك تعاقدت على قيمة معينة، ثم حدثت الآفات، ألا يمكن أن تكون رحيمًا.

لم يتضايق الحاج على غير المتوقع، وإنما قال فى هدوء: أما التوقيع على بياض، فإن العرف قد جرى بذلك منذ سنين، وأما دعوتى لكى أكون رحيمًا، فأمر ذلك موكول لى، يصح أن أرفضه أو أقبله.

ولوح الشيخ بمسبحته قائلا: يا حاج ليست المسألة عقود وتوقيعات وشهود.. الرب رب قلوب، والدين المعاملة.

- يا شيخنا، إن قبولهم التوقيع على بياض أمر لم أرغمهم عليه.

- بل أرغمتهم الحاجة والفقر، أنت تعلم.. أعوذ بالله.

كلما تذكر الحاج عبد الودود ذلك الجدار البشرى الصلد الذى وقف حائلا بينه وبين الشاب الخطيب فى المسجد، وكلما تذكر النظرات التى تشتعل نارًا ووعيدًا، وهى ترشقه، وكلما تذكر عجزه عن أن يفقأ عين الخطيب، وأن يسفك دم الذين صنعوا الحائل أو

الجدار الذى اعترضه، كلما تذكر ذلك امتلأت نفسه حقداً وقسوة، وازداد إصراراً على موقفه الصلب . . لم تعد تحركه إلا نوازع الانتقام والثأر لكبريائه الجريحة . . كانت هذه أول مرة يُهزم فيها بحق، ويشعر أنه عاجز . . برغم ماله، وأرضه، وأولاده. والحقيقة أن الحاج عبد الودود لم يعط الموضوع حقه من التفكير الهادئ، الرزين، إنه رجل داهية يستطيع أن يفكر فى الانسحاب إذا دعا الموقف المتأزم إلى ذلك، لكن انشغاله بأمور أخرى أثارتها فى نفسه زيارة سكينة، تلك الزيارة العادية، وإصراره أن يكون رجلا قادراً على توقيع العقاب وتحطيم المعارضين قد دفعه إلى التمادى وغلق قلبه عن أن يستمع لأى نداء.

عيون سكينة الحلوة لم تزل تومض فى قلبه، ولمساتها الحانية ما زالت تثير القشعريرة فى جسده كلما تذكرها، ونغم نبراتها الشهية لم يزل يعمر أذنيه وروحه، وكوب عصير الليمون الذى تجرعه من يديها لم يزل طعمه على لسانه.

لم تكن سكينة تحلم بهذا الأثر كله، ولم تتوقع أن يفتح الرجل لها قلبه، ويبش فى وجهها، ويعاملها برقة واحترام.

وأخذت سكينة تقهقه عندما التقت ربيع فى بيتها، وتقول له : كنت أتصور أباك وحشًا من وحوش البرارى فإذا به حمل وديع. كان يقول لى شرفتنا يا ابنتى، لماذا تتعبين نفسك؟ . . والله بنت عبد الحميد عوض صحيح، بصراحة كان يغازلنى ويمتدح جمالى

وذكائى. أبوك رجل خبير بالنساء.. أخاف أن يكون قناع الصرامة والجدية الذى يضفيه على نفسه قناعًا زائفًا.. قرأت فى عينى أبيك أشياء كثيرة. لا يفهم الرجل على حقيقته إلا امرأة ذات جمال وعقل كبير.

لم يهتم ربيع كثيراً بما تقول.. لقد كفاه أن زيارتها لأبيه قد انجلت عن نصر أكيد له، فلو أن أباه لم يرتح لها لاشمأز منها وعاملها بفتور، ثم أنَّب ربيع على تهافته عليها.

وطرب ربيع لهذه التطورات المشجعة وأثنى على براعة سكينة ودهائها.

وقال ربيع فى نشوة: لقد اقترب يوم المنى يا سكينة.

- متى يا ربيع؟

سأفاتحه فى الأمر، وأعتقد أنه سيفرغ لى بعد أن ينتهى من مشكلات الفلاحين وشغبهم. إن هذه المسألة تشغل باله الآن، وخاصة أننا مقدمون على رفع الأمر للقضاء، وأبى ينوى أن يقوم بنفسه بزراعة أرضه، ولا شك أن هذا سيجعل العبء علىَّ وعلى أخى مضاعفًا.

كانا يجلسان معًا فى حجرة واحدة ويتجاذبان أطراف الحديث فى نشوة حالمة.. يتحدثان عن المستقبل والأمل والحب، لكن زوجة أبيها أقبلت مرتبكة وأخذت تقول متلعثمة: لقد وصل أبوك يا سى ربيع.

ومع أن قلب ربيع أخـذ يدق فى عنف ، شـأن الطفل الصـغـير الذى يمسك به أبوه متلبساً بعمل شائن طالما حذره منه ، إلا أنه فرح ، وأشـرق وجهـه المضطرب بومـضـات من السـعـادة ، قـال : ألم أقل لك . . سترين أن خطبتنا سوف تعلن الليلة .

ثم التفت إلى زوجة الأب قائلا : هل علم بوجودى؟

- لا .

إذن لا داعى لإخـبـاره . . لسـوف أتسلل دون أن يرانى . . قـد يضايقه وجودى .

***

وبدا لأول وهلة أن الحاج عبد الودود قد ضاق ذرعًا بالجو القاتم المتوتر الذى خلقه الفلاحون وإن رأى البعض أنه هو الذى قد خلق هذا الجو لنفسه وخاصة عندما أصر على موقفه ولم يستجب لرجاء الشيخ عبد الباقى ولم ينصع لرأى ولده ربيع، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد كانت التسعيرة التى حددها الحاج عبد الودود ثمنًا لإيجار فدان الأرض، برغم الآفات سنة سيئة لغيره من الأثرياء والإقطاعيين وخاصة المجاورين له، وأرض الوقف، فقد ارتفعت إيجارات الأرض وضج الجميع بالشكوى، ولم يقف الأمر عند المستأجرين من الحاج عبد الودود وحده، وصاح الشيخ عبد الباقى شيخ الطريقة الصوفية يصرخ بأعلى صوته: مَن سنَّ سنة سيئة فله وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة، هكذا يقول معنى الحديث النبوى الشريف، والحاج عبد الودود قد سلك طريق الظلم والإضرار بمصالح العباد، ولا بد أن يرعوى.. لا بد أن يرعوى.

وتناقل الناس كلمات الشيخ البارّ، لم يتناقلوها بنصها، بل حرفوا فيها وزادوا عليها، فمن قائل إن الشيخ قد أفتى بإهدار دم الشيخ عبد الودود، ومن قائل بأنه قد أفتى بأن الجهاد ضده وضد نزواته جهاد فى سبيل الله، وآخرون زعموا باطلا أن الشيخ أباح

سلب ونهب ممتلكات الحاج ومزروعاته وسرقة بهائمه أو دس السم لها، لكن الحاج عبد الودود لم يعر هذه الشائعات والأقوال التفاتًا، ومضى فى خطته لا يتزحزح عنها قيد أنملة، كان يعلم أن الفلاحين فى مثل تلك الأمور، يقولون أكثر مما يفعلون ويتحمسون حتى ليخيل إليك أنهم سيدكون الأرض دكًا أو يهدمون البيوت الكبيرة على رؤوس أصحابها، وسرعان ما يفترون ويتراجعون جبنًا وضعفًا.

ولا يدرى الحاج عبد الودود لماذا وردت على ذهنه صورة سكينة فى تلك الأيام العصيبة بالذات.. لقد تهادت إلى خاطره كما يتهادى الظل الحنون المرطب، ومن ثم تحركت قدماه إلى بيتها، وهو فى شبه حلم، ولكم تمنى وهو يقصد بيتها أن تتم مراسيم الزواج على ربيع فى سرعة خاطفة، كى تأتى هذه الفاتنة المسلية إلى بيته فتؤنس وحشته وتبدد جو الكآبة والتوتر الذى يرين عليه، إن لهذه الفتاة تأثيرًا ساحرًا على كل مكان تحل به، وعلى كل شخص تلقاه.. لم يكن يدرى، وهو يدلف داخل البيت، أن ربيع هناك، ولو علم لربما أجل موعد ذهابه.. كان يشعر بشىء من الحرج فى محضر ولده.. شعور داخلى ينتابه دائمًا إزاء ربيع.

وأيقنت سكينة عند رؤياه بأن يوم المنى قد اقترب، وخفق قلب أبيها وزوجته فرحًا، أما ربيع فقد أخذ يحلل الموقف حسبما يعتقد.. إن أباه قد ضاق ذرعًا بهذه الأيام المتوترة العصيبة، وأبوه لا شك يريد أن يبدد هذه الضائقات والأزمات.. أبوه قد حنَّ إلى الطبول

والمزامير والضجة والمرح وفرق الرقص الرخيص التى تسكن القرى القريبة وليس أنسب من زواج ربيع ليفى بكل هذه الأمانى.

وكانت زيارة الحاج لبيت سكينة حدثًا كبيراً اهتز له مجتمع الحارة الصغيرة التى يستكن داخلها البيت المتواضع، وأخذت النسوة يذهبن ويعدن متلصصات بنظراتهن الفضولية عبر النوافذ والأبواب مسترقات السمع لعلهن يلتقطن كلمة تلقى الضوء على الزيارة المثيرة.

كان الجميع يعلمون مقدمًا أن مشروع خطبة بين ربيع وسكينة تروج حوله الشائعات.. أغلبهم استبعد مثل هذا الزواج غير المتكافىء، وخاصة أنهم يعلمون أخلاقيات الحاج عبد الودود وآراءه الحازمة فى شئون الحياة والزواج والطلاق والمعاملات، وأخذت تعليقات أهل الحارة تنطلق متناقضة متصارعة، غير أن نسبة كبيرة من الأهالى رجحت أن الحاج إنما أتى ليضع حداً للشائعات.. جاء ليقول للشيخ عبد الحميد عوض: يجب أن تنتهى هذه المهزلة، فلست من ثوبى ولست من ثوك حتى أزوج ابنتك لابنى، وبدلا من الفضيحة والقيل والقال ضع حداً لهذه السخريات الصغيرة.. هكذا اعتقدت الغالبية.

***

وفى داخل منزل الشيخ عبد الحميد والد سكينة كان ما يجرى مخالفًا لكل تكهنات أهل القرية، كان عبد الحميد حفيًا بالحاج عبد

الودود، الذى لم يمانع فى شرب القهوة، لكن المضيف أصر على الشربات أولا ثم الفاكهة ثانيًا، وبعد ذلك نحتسى القهوة.

وتكلم الحاج الشيخ عبد الحميد عن الزمان الذى قد فسد حاله وكثرت فيه الحروب وصال الشيطان بين أرجائه وجال، ثم قال فى سلامة نية: لكن والله يا حاج معظم الفلاحين مساكين.

فأطلق الحاج ضحكة فاترة وقال: أنت المسكين.. هم لا يلبسون الصوف ولا يسافرون إلى المدينة، ويأكلون أى شىء، ولا يستقبلون العظماء والكبراء.. المسكين أنت.

تلعثم عبد الحميد وقال: أقصد أن الغلاء فاحش والآفات قد أتلفت الزرع.

- من غضب الله عليهم.

- معقول.

قالها دون أن يؤمن بها، لكن أصول المجاملة لرجل كبير المقام كالحاج عبد الودود تقتضى ذلك وظروف الزيارة التى لا شك تتعلق بسكينة، تقتضى ذلك هى الأخرى، لهذا فالمجاملة آنئذ فرض أو واجب.

وارتشف الحاج جرعة من فنجان القهوة، وتنهد فى ارتياح مشوب بالقلق، القلق الذى شفت عنه ملامحه ونظراته وشحوب وجهه.

وابتسم الحاج وقال: عندما رأيت سكينة لم أصدق أنها تلك الطفلة ذات الرداء الأحمر.

وخالط الخجل حركات الشيخ وسكناته، فأغضى حياء، بينما استطرد الحاج: ولما جالستها قلت إنها بنت عبد الحميد عوض صحيح. بنت حلال.

- العفو.

قالها في ارتباك، ثم أطرق ويده فيها فنجان القهوة ترتعش: إن سكينة جديرة بكل خير، وأى بيت فى قريتنا يفخر بأن يضمها بين جدرانه.

ودقت أجراس الفرحة خلف ضلوع عبد الحميد، لقد أوشكت الأمنية الغالية أن تتحقق، ستتزوج سكينة، حسبما يعتقد، من ابن سيد القرية ورجلها الأول، وستنعم بالمال والخيرات والثراء، وسيحسدها كل أهل الحارة، بل أهل القرية جميعًا.

وعاد الحاج عبد الودود يقول: ماذا أقول.. سكينة بنتك.

- لا. لا.. إنها ستى وتاج رأسى.

- العفو يا حاج، إذا أردتها خادمة فى بيتك فلسوف يشرفنى ذلك ويملأ قلبى بالرضا.

ابتسم الحاج وهز رأسه وقال: بل سأجلسها على عرش قلبى، وأضع فى يدها كل ما أملك.

- هذا كثير، مَن ستكون بالنسبة لابنك ربيع؟ إنك تغرقنا فى فيض إطرائك ومجاملاتك الكثيرة.

وأخذ عبد الحميد يفكر، هذا هو الفتوح.. رضى الله عن سكينة، تلك التى عاشت معذبة بلا أم، ينقصها الدفء والحنان الذى افتقدته صغيرة، إن الله لا ينسى عبيده.. مَن كان يصدق أن تكون لربيع ابن الحاج عبد الودود.. شكراً لك يا رب وحمداً.

وعاد الحاج يقول: إن عينى الفاحصة لا تخطئ الكنز الثمين ولو كان مطموراً تحت التراب.

لم يتكلم عبد الحميد، واستطرد الحاج يقول: بنتك جوهرة، والآن هات يدك.

***

ومد عبد الحميد يداً مرتجفة، وكان وجهه الأسمر النحيل وعيناه الواسعتان القلقتان تفيضان بالحب والبراءة، وعمامته البيضاء.. كل شيء فيه كان يشرق ويومض بالفرحة، وتلاقت اليدان، وسدد الحاج إليه نظرات نافذة وهمس:

- أتوافق على زواج سكينة منى؟

وهتف الشيخ عبد الحميد دون وعى: منك؟.. تعنى ربيع؟..

- بل أخطبها لنفسى يا عبد الحميد.. أنا الحاج عبد الودود.. أهناك ما يمنع؟

ولمّ عبد الحميد شتات نفسه، وحاول أن يكون متماسكًا صلبًا في مثل هذا الموقف الذي لم يخطر له على بال.

واصطنع ابتسامة شبه بلهاء وقال: هذا الشرف لم أكن أحلم به.. ألم أقل لك إنها خادمتك؟

- أتوافقني أنت؟..

وقال عبد الحميد وقد تبللت عيناه بالدموع:

- ألف مرة أقولها.. موافق.. موافق.. موافق.. هذا يوم المنى يا سيد الناس.

- الفاتحة للنبي.

وتمتمت الشفاه ببضع آيات مكتومة من القرآن.

كانت القلوب تخفق.

وكلب عجوز داخل البيت ينبح في إصرار... وسكينة تجلس في حجرة أخرى تحلم... تحلم بيوم المنى، وليس في ذهنها سوى صورة ربيع الضخم.. الطيب.. الذي تأسرها سذاجته وعنفه وقلبه الأبيض.. ويده الخشنة.

انتشر الخبر في كل ركن من أركان القرية، وكان انتشاره على صورة مثيرة وغريبة.

لقد زعم الزاعمون أن الحاج عبد الودود ذهب ليخطب سكينة لابنه ربيع، وعندما رآها أعجبته، ومن ثم فكرّ الحاج عبد الودود أن يخطبها لنفسه.. وقد كان.

وحول النبأ الغريب تناثرت تعليقات لاذعة مرة، فمن قائل إن ما حدث لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل أنانى جشع، إذ كيف تسول له نفسه أن يسطو على حبيبة ولده؟..

وقال آخر: ليس هذا بجديد على الحاج عبد الودود، تلك هى أخلاقه منذ زمن بعيد.. إنه يعبد نفسه وهواه، ولا يقدس إلا أطماعه، لا يحب التضحية.. يا له من عجوز متصاب!

وجرؤ أحد الفلاحين على أن يواجه ربيع ويصرخ فى شماتة: إن ظلم أبيك لم يرحم أحدًا حتى أنت يا ربيع.

ويبدو أن انفجار هذا النبأ المفاجئ قد جعل مشكلة الأرض ومغالاة الحاج فى الإيجارات مشكلة عامة كبيرة، ذات أبعاد إنسانية أكثر من المال والآفات.. الحاج لا يرحم.. أيتنكر لأواصر القربى؟..

أما الشيخ عبد الباقى فقد علق بكلمات من كتاب الله:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

أما الحاج عبد الودود فلم يكترث لكل ما يقال، لقد أصبح فى اليوم التالى حليق اللحية، نظيف الثياب، لامع الحذاء، يتظاهر بالخفة والرشاقة، وكان تعليقه على كل ما يقال تعليقًا مفحمًا محيرًا. لقد قال:

- إن الله قد شرع الزواج . . والحلال بيّن . . والحرام بيّن ، وأنا لم أخرج على سنّة الله ورسوله . . فماذا فى أن أتزوج فتاة جميلة . . لا الشرع يحرمها علىّ ولا القانون يعترضنى . . إننى أستمتع بما وهبنى الله فى الحلال .

ويصمت برهة ثم يعود ليقول : وأنا لم أثب على ولدى ، إن للعروس أن تختار مَن تشاء . . وولدى لم يزل صغيراً ، وفرص الحياة أمامه واسعة مليئة . . أما أنا فرجل أعبر خريف العمر ، وحاشا لله أن ينكر علىّ ولدى ما فعلت .

❁❁❁

أما زوجة الحاج عبد الودود فقد انفجرت باكية . . انهارت تماماً فور سماعها النبأ ، ومن بين دموعها الغزيرة أخذت تقول :

- حرام عليك يا حاج . . أتعملها فى آخر العمر؟ أهذا جزائى وقد عشت إلى جوارك أخدمك وأسهر على راحتك؟ ما ذنبى حتى تجعل الناس يلوكون اسمى فى كل مكان؟ أتقبل أنت يا رجل يا عاقل أنه تكون سكينة ابنة عبد الحميد عوض ضرتى؟ أمثلها تكون نداً لبنت الأكابر؟ أنت نفسك لم تكن توافق على زواجها من ولدك ربيع . . ماذا جرى لعقلك؟ أتراها قد سحرت لك؟

فهزّ رأسه فى إصرار قائلا : النصيب يا أم ربيع .

- أنت تهرب وتمسح أخطاءك فى النصيب . . تستطيع أن تلغى الأمر نهائيًا .

لم يكن يتصور أنه قادر على أن يهجر سكينة . . إنه يحلم بالليلة الجميلة الشائقة التى يلتقيان فيها حيث يمتزج شبابها بلهفة عمره الطويل الظامىء، فتتعمى فى قلبه الأمنيات الحلوة ويشعر بالحياة . . الحياة الدافئة الرائعة الحقيقية .

ولهذا ردّ على زوجته على الفور .

- مستحيل يا أم ربيع .

فجففت دموعها وانتصبت واقفة وصرخت فى حدّة، وقلبها الكبير يتنزى ألمًا ولوعة :

- إذن لن أبقى معك بعد اليوم .

- كونى عاقلة .

- ليتك كنت كذلك إذن لما حلت الكارثة .

- لن تخسرى شيئًا بزواجى . . ستظلين سيدة البيت . . الآمرة الناهية . . كلنا طوع أمرك .

ضحكت فى مرارة وقالت :

- بل سأخسر كرامتى وثقتى فيك . . وستلوث شرفى وشرف أسرتى . . لن أقبل .

- يجب أن تفكرى فيما أنت مقدمة عليه .

- دعنى وشأنى .

- أنت تهدمين بيتك .

- تحاول أن تلصق بى جريمتك .

- جريمتى؟ أنت تهذرين يا امرأة . . لكم أحببتك .

- لم تحب إلا نفسك يا عبد الودود .

- والعشرة الطويلة؟

- لقد أقدمت أنت على تلويثها . . لم ترحم شيبتى .

- يا امرأة . . .

- كفى . . يا قليل الخير .

***

واعتصم ربيع بالصمت ، أصابته المفاجأة الكبرى بالذهول ، فطوى قلبه على أحزانه المشتعلة ، وأخذ يفرق أساه فى الذهاب إلى الحقل والعمل المضنى . . إن غريمه أبوه فماذا يستطيع أن يفعل بأبيه؟

كان يؤمن فى قرارة نفسه أن أباه نذل حقير ، لكنه لم يستطع أن يصرح بذلك .

حاول أن يخفف من حدة البلوى ويعتبرها أمرًا تافهًا لا يستحق كل هذا الضجيج والنقاش الحاد ، لكن تعبيرات وجهه كانت تشى بالكثير مما يعتمل فى فؤاده الحزين ، وأيقن أن أباه ، كما يقول

الناس، أنانى ظالم متعسف، لا يفكر إلا فى نفسه وأهوائه . . وربيع لا ينكر أن أفكاره قد تشتط فى بعض الأحيان، فيتصور أنه قد أمسك بفأسه وانقض بها على رأس أبيه، أو أنه يسدد خنجراً مسمومًا إلى قلبه الفاسد، أو يرى فى منامه المليء بالأحلام القاتمة أنه قد أطبق على عنق والده، ولم يتركه إلا جثة هامدة .

خواطر كثيرة سوداء تداهم ربيع فى يقظته ومنامه، لكنه يحاول جاهدًا أن يبعدها عن فكره، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . ويلجأ إلى الله طالبًا منه الرحمة والمغفرة، ثم يلوذ بالصمت، الصمت العاصف .

ومرة أخرى يتساءل ربيع : كيف يمكن أن أعيش معها تحت سقف واحد، وقد أصبحت سكينة حبيبتى، زوجة لأبى؟ . . إن لمساتها الحانية الشهية لا يمكن أن أنساها، ونظراتها النفاذة التى تفيض بآلاف المعانى ما زالت تنسكب فى روحى . . لا بد من البحث عن مأوى آخر، لا يمكن أن أعيش معها وهى زوجة لأبى . . يجب أن أهجر البيت كما تنوى أمى . . لم يعد لى مكان فيه . . دائمًا أشعر أن أبى يملك كل شىء . . حتى أبناءه وزوجته وخدمه، كلنا عبيده وعقاره . . سامحك الله يا أبى .

وسكينة . . ما موقعها؟ . .

لم تصدق أذنيها وهى تسمع كلمات أبيها التى حملها إليها معلنًا موافقته على زواجها من الحاج عبد الودود . . ذابت أحلامها . .

ووشح الضباب صورة ربيع فى خيالها، وامتلأ رأسها بصورة الرأس الكبيرة والأنف المعقوف والعمامة البيضاء والجسد الممتلئ القصير . . تذكر تلك الكلمة : «الدهن فى العتاقى» .

وطربت زوجة أبيها للنبأ، وأطلقت زغرودتها عالية، فتردد صداها فى أفق البيت المتواضع، والتقطتها الآذان الفضولية فى الحارة .

وهمست سكينة فى شرود :

- لكن لماذا فعل ذلك؟

- لا أدرى . . أراد الزواج منك فقبلت على الفور . . إنها فرصة العمر .

- لكن ولده أرادنى لنفسه . . الرجل قاس لا يرحم . الفلاحون، بل أهل القرية جميعًا يكرهونه .

- كلنا يعلم ذلك .

***

وتذكرت زيارتها الغريبة ذات مساء وحنوّها البالغ عليه، ورقتها الزائدة التى كان لها أعمق الأثر فى تصرفاته وكلماته وحكمه عليها . . لقد حاولت سكينة أن تضمه إلى صفها كى يوافق على زواج ربيع منها، فإذا به يفسح لها أكبر مكان فى قلبه، ويضحى بزوجته وولده وسمعته، ويخطبها لنفسه، كانت كالطبيب الذى

أراد أن يعطى المريض جرعة صغيرة لمجرد الانتعاش، فإذا بهذه الجرعة تتضاعف وتفعل ما هو أكثر من الانتعاش.. تحيل المريض إلى قوة ثائرة مدمرة.. رباه.. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا أظلم نفسى وأظلم ربيع؟

والتفتت إلى أبيها قائلة:

- لكنى لا أريد الزواج من الحاج عبد الودود.. إنه فى مثل سنك يا أبى.

ابتسم أبوها وربت على كتفها فى رقة وقال:

- لا شك أنك تمزحين.. أهناك عاقلة واحدة ترفض الزواج منه؟؟ سيقول الناس إنك قد عشقت ولده، وهذا عار يلحق بنا. ثم، أتعتقدين أن رفضك الزواج منه سيقربك من ربيع؟؟ كلا يا عزيزتى.. لن يتزوجك ربيع إذا ما جرحت كبرياء أبيه.. ولن يتزوجك غير ربيع، لأن أهل القرية يعرفون ما بينكما من صلات. ولماذا نستطرد فى مثل تلك الأفكار الغبية؟؟ أنا شخصيًا وافقت. وعقد القران عن قريب، ولا مجال للتردد والتراجع، وأعتقد أنك بعد تفكير رزين ستصلين إلى نفس ما وصلت إليه فى لحظات. يا لها من لحظة، مددت يدى وأنا واثق تمام الثقة أنه سيطلبك لولده، وعندما فاجأنى بخطبتك له بهتُّ.. كاد قلبى يتوقف.. لكنى، على الفور، أبديت له موافقتى.. لم يبد لى أى معنى وجيه للتردد أو الرفض.

●●●

ألقت سكينة بنفسها على صدر أبيها وأخذت تنتحب . . كانت تبكى فى مرارة حارقة، وجسدها كله ينتفض . . تحولت الجميلة الذكية الماكرة إلى طفلة عاجزة حائرة، لا ملجأ لها سوى الدموع .

وضمها الأب إليه فى رفق وقلبه يكاد يتفطر ، وتمتم وشفته ترتعش : تأكدى أنك ستسعدين .

فردّت قائلة : أعرف أنه لا مفر من الموافقة .

- بالطبع ياحبيبتى ، فما فى عائلتنا فتيات يرفضن الزواج أو يهربن مع العشيق .

كفى يا أبى . . كفى . . سامحه الله .

- وإذا كنت ابنتى حقًا . . تستطيعين أن تغيرى من سلوكه . . أن تكيفى الوضع بطريقة تسعدكما .

***

طال استسلام القرية وصبرها ، ولم تترك بابًا إلا وطرقته لتصرف الحاج عبد الودود عن التشبث برفع قيمة الإيجار ، ولكى لا يطرد بعض المتمردين من أرضه . . كلمات كثيرة كانت تطرق سمع الحاج . . الناس مساكين يا أبا ربيع .

كل هذه الكلمات تتساقط دبر أذنيه . . لا يجيب إلا بكلمة «لا» . وسكينة قد ملأت قلبه ، وسيطرت على مشاعره . . أكان يحبها؟؟ هذا ما يجمع عليه الناس ، لكن الشيخ عبد الباقى يقول :

- إنه ليس محبًا . . عبد الودود رجل طائش أنانى . . الحب الحقيقى يتسامى على نزوات الجسد ، ويربأ بنفسه عن الانغماس فى مطامع الدنيا . . الحب يملأ القلوب يا أبنائى بالرحمة والعدل والصفاء . . ورجلكم إنسان شرير . . أجل . . أصاب الناس فى قريتنا يأس قاتل .

وأخذوا يجترون أساهم وأحزانهم فى المساء حيث القلق والأرق . . لكن هذا اليأس الممتد الحزين قد انبثقت منه شرارة ، هذه الشرارة تبدت فى شكل كلمات قصار قالها رجل حانق . . رجل لا يعرف الناس . . مَن هو على وجه اليقين .

ولعل تلك الكلمات القصار صدرت عن رجلين . . عن ثلاثة ، لا أحد يعلم .

لقد قيل : «الحاج عبد الودود لن يرتدع إلا بالقوة» .

وضحك البعض ساخرين . . أى قوة تستطيع أن تؤدب الحاج أو تدمره؟؟ الحاج عنده المال والرجال ، ومعه السلطان ، ونحن فى حاجة إلى أرضه ، وهو ليس فى حاجة إلينا .

ويقول بعض أدعياء الحكمة من الفقراء: هناك طريقان للتخلص من الظلم.. الطريق الأول هو التفاهم والإقناع، والطريق الثانى هو القوة، لقد فشلت وسيلة الإقناع فلم يبق إلا القوة.

وتعود الضحكات الساخرة، ويهتف اليائسون: اتركوا الأمر لله.

فيردّ حكيم فقير: يا عبد قم وأنا أقوم معك، وإن لم تقم يا عبد مَن سينفعك.

وفى ظلام اليأس انطلقت شرارات مشابهة كثيرة، لعل شرارة واحدة لم تكن تؤثر فى ذلك الظلام المدلهم، لكن تجمع الشرارات سببت ذبالة من الضوء هزيلة، ومهما كانت هزيلة فقد رآها الناس.. صادفت هوى فى نفوسهم، فطربوا لها.

وفوجئ الناس بحادث كان من الممكن أن يكون بسيطًا، وأن يمرّ مرور الكرام، لولا تعنت الحاج وتهوره.

لقد سرى خبر يقول: إن مجهولين قد أتلفوا نصف فدان من مزرعة الحاج، وانطلق إلى المركز يتوعد ويتهدد، لكن مأمور المركز، وهو مأمور جديد لا يعرف الحاج تمام المعرفة، قال فى هدوء:

- سنحقق فى الأمر.

صاح الحاج:

- بل لا بد من العقاب الرادع فورًا.

- لكننا لم نعثر على الجانى بعد.

- سوقوهم جميعًا إلى المركز.

- مَن؟

- المشبوهون.

-أتشتبه فى واحد بعينه؟

- أشتبه فى خمسين رجلا على الأقل.

- وما دليلك؟

تضايق الحاج وقال:

- دليل؟ أتطلب منى الدليل؟ هذا كثير.

- نحن لا نقبض على الناس دون بينة.

ومع ذلك فقد قام المأمور بنفسه، وأخذ يجمع التحريات، ويسأل بعض المشبوهين، حتى استطاع أن يعرف حقيقة الخلاف، ويضع يده على المشكلة الحقيقية ألا وهى إيجار الأرض.

وكان المأمور من السذاجة بحيث حاول أن يقنع الحاج بأن يرحم الفلاحين وألا يغالى فى الإيجارات. وأفهمه أن عطفه عليهم، ورحمته بهم، سوف تقضى على كل عدوان متوقع.

وصاح الحاج:

- أنت لا تعرف مَن أنا. أنت تتدخل فيما لا يعنيك. يا حماة الأمن أريد أن أعرف مَن الذى أتلف زرعى، وإذا لم تتخذوا إجراء حاسمًا فسأتصل بالداخلية على الفور.

لم يهتم المأمور كثيراً بحماقات الحاج وغروره، بل قيد الحادث ضد مجهول، وجمع رجاله وأوراقه وترك القرية دون أن يقبض على أى فرد فيها.

وبات الحاج ليلته يغلى، لا بد من عقوبة هذا المأمور ونقله من هنا.

وقضى ليلته حانقًا مكروبًا، وفى الصباح علم أن مجهولين أيضًا قد أتلفوا كل مزرعة الخضراوات، وهى تربو على خمسة أفدنة.

كاد الحاج يصاب بلوثة.. أبرق إلى وزير الداخلية.. أبلغ المركز والمديرية، لم يغفل الاتصال بالنيابة. تحادث تليفونيًا مع أولاده الموظفين.. وجَّه إلى العمدة والخفراء كلمات نابية، وتوعدهم بالويل والثبور، وعظائم الأمور.

وهاجت القرية وماجت، وامتلأت بالعسكر.. همسات تدور، كلها شماتة وفرحًا وضراعات إلى الله أن يحمى الأيدى التى ألقمت الحاج حجراً.

وأعلنت حالة الطوارئ، وأجرى تحقيق طويل شديد مع الخفراء. لكن الحادث، هذه المرة أيضًا، قيِّد ضد مجهول.

وعندما طلبوا من الحاج أن يتهم مَن شاء.. نظر إلى الوجوه الكثيرة الفضولية التى تحتشد أمام الدوار.. كل النظرات تقلقه.. السحنات السمراء التى لوَّحتها أشعة الشمس تتصدى له فى صمت أبى الهول وتحديه.

ويصرخ الحاج في شبه جنون:

- كلهم.. كلهم آثمون مجرمون.. سفلة.

الحوادث تزداد. بهائم الحاج تُسرق منه حظائرها، مساحات أخرى من الأرض المزروعة يتلفها مجهولون، بعض الجسورين يكتبون على باب بيت الحاج «الموت لك»، رصاصات طائشة تطلق في جوف الظلام في الهواء دون هدف.

وتأتي فرقة من «الهجانة» ذوي الكرابيج، وتمنع التجول في القرية ابتداء من أذان المغرب حتى مطلع الشمس.. لكن إتلاف مزروعات الحاج مستمر، والحاج برغم حضور أولاده الموظفين، ورغم إبلاغه الداخلية، والمديرية، يعيش في رعب وضيق بالغ، ولا يكاد يغادر البيت، والنيابة تأبى أن تأمر بالقبض على أحد دون قرائن.

وأخيراً قرر الحاج أن يفعل شيئًا.

وركب سراً وذهب إلى المأمور، وقال له:

- إنني أتهم الذين يستأجرون أرضي وهم فلان وفلان، إلخ.. إن القبض على هذه المجموعة سيضع حداً للقلاقل، وسترى أنه لن يحدث حادث واحد بعد ذلك.. من المعقول ألا يتعدى عليَّ إلا أصحاب المصلحة في ذلك.

قال المأمور:

- تقصد أولئك الذين وقع عليهم ظلمك؟

- أنا لا أظلم أحداً يا حضـرة المأمـور، إننى أتصرف فى حدود القانون الذى يحمينى.

سدد إليه المأمور نظرات نافذة وقال:

- ما دمت مصراً على موقفك الجائر، فلن تجنى سوى الشر.

- ما معنى كلامك؟

- المعنى واضح.

- هذا تشجيع على الإفساد يا حضرة المأمور.. هذا استهتار بأمن البلد.

تضايق المأمور وتوترت أعصابه وصرخ دون وعى:

- أنت تهذى.. لو أتونى برأسك ورؤوس أمثالك لعذرتهم، أنت المسؤول عن هذه الكارثة، ومع ذلك تأبى أن تعترف.. ليكن القانون فى صفك، لكن أى منطق يوافق على أن ترفع الإيجار فى الوقت الذى أصابت الآفات المحصول الرئيسى للفلاحين؟

شحب وجه الحاج، ووقف محتداً وقال:

- القانون هو منطقى.

- أنت انتزعت منهم التوقيعات على بياض.

- لم يحصل.

- الجميع يؤكدون ذلك.

- لا ردّ لي سوى العقود التى وقعوا عليها، وهى ليست على بياض.

تقاطر العرق على جبين المأمور، وأفاق إلى نفسه، وأدرك أنه قد تورط فيما لا يحب أن يتورط فيه، وأنه كرجل محايد يجب أن يتمسك بحرفية القانون، وأن يعالج الأمور فى ضوء «الجريمة» الفعلية التى وقعت.. هكذا يقول رؤساؤه.

ومن ثم طأطأ رأسه فى أسى وقال:

- آسف يا حاج، إن ما حدث لك قد ترك فى نفسى ألمًا عميقًا.. ثم إن عجزنا عن القبض عن الجناة يضايقنى لأبعد مدى.. لا يكن فى نفسك شيء مما قلته.. إن سهرى وفشلى وأسفى من أجلك هو الذى جعلنى أقول ما قلت. لتنس ذلك، ولسوف أقوم بالقبض على كل من ذكرتهم لى حماية للأمن ولأموال الناس ومزروعاتهم.

وفى الليلة التى تمّ فيها القبض على المشبوهين، باتت القرية تغلى، لكن تيار الحوادث لم يتوقف.. ففى اليوم التالى أتلف مجهولون مزروعات جديدة.

ويزعم أهل القرية أن رجال الشرطة كانوا يقفون عند رأس الغيط بينما السواعد المجهولة تدمر الزرع الأخضر فى الناحية الأخرى.. والظلام دامس.. وأصوات مبهمة.. ورصاصات طائشة.. تتردد فى أفق الليل الكبير.

ووجد المأمور أن هذا أقوى دليل على براءة المقبوض عليهم، فأطلق سراحهم على الفور.

وما إن فعل ذلك حتى خرجت القرية عن بكرة أبيها تستقبلهم بالزغاريد والهتافات.

وسمع الحاج، وهو مستكن فى حجرة علوية ببيته، أصوات الحشود تهتف دون خوف.

قال ربيع لأبيه وأصوات المتظاهرين تصم الآذان فى أول الليل:

- ولماذا لا نحنى رؤوسنا حتى تمر العاصفة؟

- لن يفعلها إلا حقير هزيل مثلك.

- والحل؟

- الموت.. أجل، الموت يحسم كثيراً من الخلافات المستعصية.

وصاح ربيع:

- ماذا؟

- سأقطع رؤوس زعمائهم.

- كيف؟

- ما أكثر محترفى القتل.. عندما يقبضون الثمن.. سيسفكون دم مَن أشاء.

●●●

انزعج الشيخ عبد الباقى لهذه الظاهرة الغريبة التى اجتاحت القرية، والتى لم يسبق لها مثيل.

فقد صعد المنبر فى يوم جمعة مشهود، وأخذ يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وتشهّد وكبّر وصلى على خير الأنام:

- أيها الناس.. اتقوا الله، فقد كفى ما كان.. هل رزقنا الله بنعمائه حتى ندمرها؟ وهل أخرج لنا الزرع كى نتلفه؟ وهل جاد علينا بالأنعام من مواش وأغنام كى نقتلها بالسم فلا يستفيد منها أحد؟؟ أهل القرية فى حاجة إلى كل نبتة يعصف بها الشر، وإلى كل بهيمة يقضى عليها السم.. نحن فى أيام حرب وغلاء فاحش.. أيام سوداء لا يعلم إلا الله متى تنتهى. الناس لا يجدون ما يأكلون.. يا مسلمون أما فيكم رجل رشيد.

وأخذ الشيخ عبد الباقى يستطرد فى وصف الحال التى آلت إليها القرية والخسائر التى حاقت بها وما ينتظرها فى قابل الأيام من كوارث ونكبات.. واعتبر السبب الأساسى لهذا الفساد كله زيغ النفوس والبعد عن الله جل وعلا.

ثم دعا الجميع . معتدين ومعتدى عليهم ، إلى الاعتصام بحبل الله ، ومراجعة أعمالهم ، والتفكير السليم ، والتآخى فى ظل المحبة والإخلاص . . عند ذاك الحدّ تحل كل المشكلات ويسود القرية جو الصفاء والوئام .

وهزّ الحاج عبد الودود رأسه ، وقال معلقًا على كلام الشيخ :

- ينصحهم بعد أن خربت مالطة .

أما الفلاحون فقد اعتبروا الشيخ ناكصًا عن تأييده للحق . .

وقليلون هم الذين رأوا فى كل كلمة قالها الشيخ عين الصواب والحكمة .

وقال أحد الطيبين :

- إذا كان الشيخ جادًا فى كلامه ، فيجب أن يعلم أن الخطوة الأولى تأتى أولا من الحاج عبد الودود . . فلو أن الحاج أعلن على الملأ تعديله للإيجارات وأعلن تنازله عن القضايا التى رفعها ضد الفلاحين . . وألغى قراره بطرد الكثيرين من أرضه . . لو حدث ذلك ، فإن المشكلة ستكون قد حُلّت على وجه يرضى العدالة .

***

وهكذا هدأت العاصفة قليلا ، وبدأ الناس يفكرون فى حل نهائى لهذا الاضطراب وتلك الفتنة الخطرة . . وانتظروا أن يخطو الحاج الخطوة الأولى .

هم يعلمون أنها خطوة تحتاج إلى شجاعة ونكران للذات . . لكنها لا بد أن تأتى منه ، لأنهم لا يملكون سوى الانتظار . ويكفى أنهم ركنوا إلى الصمت وكفوا أيديهم عن التمادى فى الإتلاف .

وجاءهم الرد الحاسم ذات صباح . . عندما وجدوا واحداً منهم قتيلا .

●●●

لقد كان زميلهم الذى قتل هو «عرفان جراد» . . وعرفان رجل مسكين فوق الخمسين من عمره . . ضعيف السمع والبصر ، لا يملك قيراطًا واحدًا ، وإنما يعيش هو وأولاده على إيراد فدانين يزرعهما كان قد استأجرهما من الحاج . . ولم يكن أحد يتصور مطلقًا أن مثل هذا الرجل الطيب المسكين الذى يزحف دائمًا فى آخر الصفوف فى موكب الحياة القاسية . . لم يكن أحد يتصور أن يموت قتيلا . و«عرفان» لم يعاد أحدًا عداء حقيقيًا فى أى يوم من الأيام . . والحقيقة أنه أبدى سخطه البالغ على تصرفات الحاج الأخيرة ، وصرح بكل ما فى قلبه .

كان واحدًا من الرجال الذين صنعوا الحاجز الصلب فى المسجد الكبير يوم أن اصطدم الحاج بالخطيب الشاب ، وكان واحدًا من الوجوه الجامدة التى تقف أمام دوار العمدة فى يوم التحقيق . وكان أحد المقبوض عليهم يوم أن اشتبه الحاج فى عدد من المستأجرين . والشىء الأكيد أنه كان أحد الرجال المشتركين فى حملة التدمير وإتلاف الزرع ، فبمرور الأيام أصبح زعماء الحركة معروفين لدى أهل القرية جميعًا ، وأصبح دور كل واحد منهم غير مجهول لعامة الشعب .

لقد تكونت أكثر من فرقة للانتقام من الحاج ، ولم تكن كل

الفرق من المستأجرين المساكين بل انضم إليهم طائفة من الملاك الصغار . . بل من ذوى اليسار المتوسط أيضًا . وبدا أنه ليس فى القرية بيت إلا وقدم أحد أبنائه للقيام بنصيب فى المعركة الدائرة .

وعرف الحاج كل شىء . . وعرف أهل القرية كل شىء وإن أحجموا ، أو بتعبير أدق خجلوا ، أن يشهدوا ضد أى واحد من المتهمين .

لكن الذى حيرهم هو لماذا «عرفان جراد» بالذات؟ إن هناك من هو أهم وأخطر منه . . وعرفان مجرد جندى بسيط فى المعركة ، فلماذا لا تمتد يد الإثم إلى أحد الزعماء الكبار وتصرعه؟

واتهم أبناء القتيل الحاج عبد الودود رضوان بقتل أبيهم ، وكان اتهامهم غير قائم على أدلة أو قرائن . فقيِّد الحادث ضد مجهول .

توتر الجو من جديد . . وشدت أعصاب أهل القرية ، وخالط مشاعرهم روع مبهم . . إن المعركة تنتقل من طور إلى طور أخطر . . إن الدماء تعطى المعركة طابعًا وحشيًا مخيفًا .

وتساءلوا . . إن كان الحاج هو المحرض ، فمن يكون القاتل؟ . . أيمكن أن يكون فى القرية موالون للحاج؟ أهناك بعض الخونة؟

وراجت شائعة تقول إن بعض الغرباء قد شوهدوا فى القرية ليلة الحادث .

واختلطت الأنباء ، وتواترت القصص والتفصيلات ، وعمت الحيرة والقلق . . لكن أحدًا لم يستطع أن يضع يده على الجانى .

وفى ليلة سوداء عاصفة يكمن الخطر فى كل أرجائها، زُفت سكينة إلى الحاج عبد الودود رضوان.

وهمس الحاج وهو يستقبلها متعبًا مكروبًا:

- أشعر بأننى أنتقل من النار إلى الجنة وأنت تجلسين إلى جوارى يا سكينة.

ولم تعلق سكينة بشىء.. كانت مطاطأة الرأس، خافقة القلب، محتقنة العينين. وكانت تنتابها رعشة خوف كلما مس الحاج بشرتها، وكأن مسه لها كبيرة من الكبائر.

وشعرت سكينة فى تلك الليلة أنها لا شىء بالمرة.. مجرد جارية تُساق إلى سيدها.. لم تجد فى نفسها أدنى رغبة فى أن تعترض وترفض، ولم يتحرك فى قلبها أى دافع كى تستقبل سيدها فى شىء من الحماسة المصطنعة.. كانت تقف فى حيز نفسى ميت.. ساكن.. لا مذاق له ولا معنى.. فى مجال خال من السلب والإيجاب.

وعلق الشيخ عبد الباقى قائلا:

- الحاج عبد الودود استقبل عروسه الجميلة ويداه ملوثتان بدم المساكين.

أما ربيع فقد سافر إلى إخوته الموظفين فى البندر. وكانت أمه قد سبقته إلى أخواله فى بلدة مجاورة، ولم يبق إلا أخوه الثانى (الفلاح).

ومع أن الحاج قد تضايق لموقف زوجته وولده ربيع فإنه سرعان ما سعد لرحيلهما.. فقد وجد نفسه يعيش مع عروسه بلا مضايقات أو مكدرات.

ولعل الضربة التى وجهها إلى الفلاحين بصرع «عرفان جراد» قد أثلجت صدره.. جعلته، برغم عنفها وبشاعتها، يسترد بعض كبريائه المنهارة وينتقم لغروره.. إن توجيه أى إهانة كبرى له وإتلاف مزروعاته.. خطيئة كبرى لا يمحوها إلا الدم.

ولم يغب عن ذهن سكينة شبح الجريمة.. لم تستطع أن تنسى الأحداث الضخمة التى تهز القرية هزًا، برغم وقوفها منها موقف المتفرج، لكنها مع ذلك كانت حائرة تتعذب، لو كان حبها لربيع خالصًا لما حدث ما حدث. كانت تحبه لأنه ربيع، ولأنه ابن الحاج عبد الودود، الرجل العريض الثراء.

وهنا يكمن الشقاء.. حبها الخالص كان فى إمكانه أن يقضى على الرباط المقترح بينها وبين أبيه، لكن العامل الثاني الخاص بثراء ربيع هو الذى قوّض أركان الأغنية الحلوة التى ترنمت بها شفاه الحبيبين من قبل.

وعندما تحولت الدفة من ربيع إلى أبيه، استسلمت سكينة تحت ضـغط أبيـهـا وأمـام إغـراء المال والمركـز، للحـاج عـبـد الودود وتزوجته. . تزوجته فى أحرج وأصعب الأوقات. . فمضت ليلة الزفاف باردة جافة، لم تكن تنبض بحلاوة الحب، وخفقة الأمل، وانتعاشة الغد السعيد.

●●●

ومن خلال نوبة اليأس الجديدة التى أعقبت مصرع عرفان ، وعبر الظلمة الممتدة التى تأبى أن تنقشع ، انطلقت شرارات صغيرة . . اندكت الإبر الحادة فى جسم الظلمة الهائلة . .

قال قائل مجهول :

- لا يمسح الدم إلا الدم .

وقال آخر :

- العين بالعين .

وقال ثالث :

- من قتل يُقتل ولو بعد حين .

وقال رابع :

- إن سكوتنا معناه الاستسلام . . معناه سقوط الضحايا واحداً تلو الآخر .

وقال خامس :

- الحاج سرطان لا شفاء منه إلا باستئصاله .

وأخذ الشيخ عبد الحميد عوض- الصهر الجديد للحاج عبد الودود- يقول:

- يا ناس.. الصلح خير.. والناس لبعضها.

وهمهم الشيخ عبد الباقى والدموع تتقاطر على لحيته البيضاء:

- نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وجعل بأسهم بينهم شديداً، وتمزقت أواصر الحب والإخاء، فرقص الشيطان طربًا، واستحكم الشر، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

●●●

قال الحاج لسكينة وهما فى حجرتهما الخاصة :

- آه لو تعلمين .

قالت فى كسل : ماذا؟

- انفضّ الجميع من حولى وأنا سعيد . . أتدرين لماذا؟

- هيه؟

- منذ أن رأيتك وأنا أحلم بعالم ليس فيه إلا أنا وأنت .

- ياه . . أنت تبالغ .

- يا أحلى نعمة فى الوجود .

ورأت ألا بُد من مجاملته ، فهمت : كم أتمنى أنا الأخرى أن نعيش فى عالم هادئ بلا ضجيج ولا أحقاد .

- نحن كذلك يا سكينة .

- مستحيل أن أنسى مشكلة الفلاحين والأرض والأخطار المحدقة ، وخاصة بعد مقتل عرفان .

- عرفان كلب حقير ، وراح فى داهية .

- يا ليت .

- وموته أعاد عقولهم إلى رؤوسهم .

- الخطر يخفق بجناحيه فوقنا ، ماذا لو رحلنا عن القرية ، وذهبنا إلى مكان بعيد أنا وأنت . . ننعم ، ونعيش فى سعادة وراحة بال؟

- تريدين أن نهرب؟

- بل نجرى إلى السعادة . . والأرض والفلاحون والدم ، كل هذا لن يجلب لنا الهناء . . من يحب يبع كل شىء ويشترى الحب .

ضحك الحاج وقال:

- لست من أنصار الحب الفقير الضعيف . . أحب القوة والبطش وخوض الأخطار ، إنها لذة كبرى .

- الحب الحقيقى يا حاج غير هذا كله .

- ما زلت صغيرة يا سكينة .

- لكم أخاف .

طوقها بذراعيه وضحك ملء شدقيه وقال :

- لا تخافى يا قطتى الصغيرة . . أتدرين لماذا أخذ هتلر يتراجع وينهزم؟ . . لا لشىء إلا لضعف إمكاناته المادية . عنده القوة البشرية لكنها لا تملك ما تتحرك به . هكذا يقولون . . أما أعداؤه فقد أخذوا يتقدمون بما يملكون من إمكانات . . والفلاحون متهورون لا يعرفون شيئًا عن فن الحساب ، ولا يقرأون السياسة ، وأنا إمكاناتى لا تنفد .

لعل منطقه حاصرها، وألجم ذكاءها، وجعلها عاجزة عن أن ترد، على منطقه، لكن قلبها كان يحدثها بأنه خاطئ، مغرور، يلعب بالنار.

ووجدت نفسها تقول:

- لماذا لا ترحمنى وترحم نفسك؟

- كيف؟

- لسنا فى حاجة إلى مزيد من المال.

- لكننا فى حاجة ماسة إلى الكرامة.

- الكرامة؟

- أجل يا سكينة، بدون كرامة ومركز وكلمة مسموعة وسلطة تنحنى لها الرؤوس، فسأتحول إلى مجرد خزانة للمال.. صندوق معدنى صدئ لا قيمة له. لقد عشت طول حياتى سيداً، مالكًا لمصيرى ومصير هؤلاء الأنذال، ولا أستطيع أن أتنازل عن هذا الميراث الذى ورثته عن أسرتى، إننى حلقة فى مجد ضالع عريق، ومن العار أن أكون الحلقة الواهية الضعيفة فى سلسلة النسب الشريف يا بنت عبد الحميد عوض.

وبعد فترة صمت عاد يقول:

- لعلى الآن أؤمن بعدالة قضية الفلاحين، وأنا أرى الشقاء الذى يعانونه، لكن كيف أستسلم وقد خربوا مزارعى وتحدوا

إرادتى؟؟ من المستحيل أن أستجيب لمطالبهم فى هذا الوقت بالذات . . النزول على رغباتهم معناه الهزيمة لى . . معناه أننى خفت منهم وجبنت أمام انتقامهم وتهديدهم .

وبان القلق على وجه سكينة الجميل .

وقرأ الحاج فى عينيها أشياء تأبى أن تنطق بها ، وأدرك ما تعانيه من حيرة ، فهتف :

– تكلمى بصراحة .

قالت وهى ترتجف :

– ماذا لو فعلها أحدهم .

ضحك وقال :

– أعرف ما ترمين إليه . . تخافين أن يقتلونى .

– ما أكثر الرصاصات الطائشة فى مثل تلك الظروف العصيبة . والحقد يعمى ، والدم يغرى بمزيد من الدم ، ومصرع عرفان أثار النفوس أكثر مما بذر الذعر فى القلوب . أنت تعرف .

شرد الحاج بضع لحظات وقال :

– هذا الكلب قال على مشهد من الناس : سنتلف كل شىء ، ونأكل التراب ولن ندع الحاج عبد الودود يتحكم فينا وفى أرزاقنا بعد اليوم . . تصورى ، لم أكن أتخيل أن يتكلم هذا الحمار هذا

الكلام الغريب . . إن هذا المأفون يريد أن يغير العرف الذى جرت عليه الأجيال، يريد أن يكون ندًا لى أنا الحاج عبد الودود رضوان . . أنا واثق أنه لن تستطيع يد مهما تجرأت من أن تمتد إلىّ بسوء، إن لنا نحن الكبار هيبة تكسر حدة كل متحمس .

قالت سكينة :

- لكن ما فعلوه بمزروعاتك شىء خطير . إن اليد التى أتلفت زرعك تستطيع أن تشتط فى إجرامها .

هتف :

- مستحيل .

ثم عاد يقول :

- ولو حدث ذلك، فسأروح شهيد كرامة الأسرة واحترام سلطانها .

- أتقدم على ذلك؟

- ولم لا؟

- إن بقاءك حيًا فوق كل اعتبار . لا يصح أن يضحى الإنسان بحياته الغالية من أجل اعتبارات طارئة، من الممكن تسويتها .

قال وقد أحنقته كلماتها :

- الكرامة هى كل شىء .

- ولماذا تصر على تسميتها كرامة؟ ألا يمكن أن تزداد هيبتك وكرامتك إذا ما أسبغت عطفك على هؤلاء المساكين؟

- العطف لا يصح أن اقدمه مرغمًا مقهوراً.

- لقد بذلوا كل ما يستطيعون، وطرقوا كل باب فى بداية الأمر، لكنك أبيت إلا أن تنفذ ما ارتأيته، ألم يحدث هذا؟

نظر الحاج إليها فى تمعن، ثم قرصها من خدها مداعبًا وقال:

- لو أرسلوك وسيطة لهم إذن لنالوا مطالبهم فى سهولة ويسر.

قالت سكينة فى لهفة:

- ماذا لو اعتبرتنى وسيطة.

- من أجلهم؟

- من أجلهم، من أجلك، من أجل الحياة السعيدة التى نحلم بها.. من أجل أن يسود السلام هذه القرية التعسة وأهلها المساكين. إن انتصارك للمعانى الطيبة هو الكرامة بعينها. أتوسل إليك يا حاج. أنا لا أنام الليل يا حاج. إن لم تشأ أن ترحمهم فلترحمنى. أنت الآن كل شىء فى حياتى. أريدك إلى جوارى مطمئنًا خالى البال.

●●●

لشد ما طرب الحاج لهذه الكلمات الحارة التى يشم فيها رائحة الإخلاص.

كلمات لم تطرق سمعه من قبل بهذه الحرارة، وهذا الحب..

وتمتم:

- أتحبيننى لهذه الدرجة يا سكينة؟

- لولا حبى لما تحدثت معك فى هذا الموضوع الشائك.

شرد بضع لحظات وهمس:

- لأول مرة أشعر فى حياتى بأن نبعًا فياضًا من الحب يتدفق من قلبك الكبير وينسكب فى حنايا روحى الظامئة. كنت أشك فى صدور الخير عن قلوب الفقراء المحروقة المعذبة الحاقدة، لكنى أراك اليوم تكذيبًا قويًا لنظريتى، ولا أشعر الآن بمرارة هزيمة. أنت حبى الأول والأخير يا سكينة.

اقتربت منه وألقت برأسها على صدره الخافق، وهمست:

- كم أتمنى أن تتوّج هذا الحب الكبير بخطوة سلام.

وعاد إلى شروده وأخذ يقول :

- لشد ما صُدمت حينما استقبلتنى فى الليلة الأولى ببرود ظاهر، وباستسلام مقيت . لقد شعرت آنذاك أنك كالأسيرة التى تُساق عنوة إلى فارس منتصر . ما كنت أحلم بذلك . كانت الصدمة كبيرة، وكنت أفكر فى طريقة تجعل منك حبيبة حقيقية . . كنت حائراً .

قاطعته قائلة :

- إن الأحداث الضخمة أثرت على أعصابى يا حاج، ولهذا أضرع إليك . . إن بيننا وبين السعادة خطوة قصيرة، أنت الوحيد الذى يستطيع أن يخطو هذه الخطوة .

وهزَّ رأسه فى حيرة وتمتم :

- هذا كلام يحتاج إلى التفكير . . تفكير طويل .

وفجأة وبدون مقدمات قال :

- هيه . . وربيع؟

وبهتت لدى سماعها كلماته . . وهتف :

- ماذا عنه؟ أعرف أنك كنت تحبينه .

نظرت إليه فى إغراء وهمست :

- أهى الغيرة؟

- ولم لا أغار على هذا الجمال كله؟

- لكنه ابنك .

- لكنه غريمي في حبك يا سكينة .

قالت في دهاء :

- وأنا التي أحسم الأمر .

- كيف؟

- باختيارى .

وانتظر ما تفسر به كلماتها الخطيرة . ومن ثم استطردت تقول :

- وقد اخترتك يا حاج .

- أحقًا ما تقولين؟

- لم يرغمنى أحد على ذلك . كان فى إمكانى أن أعترض . أنت تعرف .

- لعلك اخترت الورقة الرابحة .

- كان اختيارى منصبًا على عناصر عدة . لا أنكر أن ثراءك ومركزك أحدها . ثم لا تنس أنك شيء وربيع شيء آخر . . أنت مكتمل وناضج ، ورجل بكل معنى الكلمة .

وضحكا . .

لشد ما أطربته هذه الكلمات، وأثرت وقته بمعان جميلة رائعة.

وعاد يقول:

- ومع ذلك فأنا لا أحب التسرع فى الحكم. إن ما تقولينه يحتاج فعلا إلى تفكير شاق طويل. إن تغيير سياسة الدولة أمر خطير غاية الخطورة.

وأخذ يضحك فى سعادة..

- لو حدث ما تشيرين به عليّ، فسيتساءل الناس عن السر الذى يختفى وراء التغير الكبير، وسيقول الخبثاء ابحث عن المرأة.

وأخذت تدلك يده فى حنان حقيقى وابتسمت قائلة:

- ولماذا يتعبون أنفسهم فى البحث عن السبب.

***

ومضى شهران والحاج يفكر، لم ينغص عليه تفكيره إلا تلك الخطابات التى ترد من مجهولين تهدد بالقتل أو بحرق بيته، بل إن أحدهم قد تجرأ ذات ليلة وأطلق بعض رصاصات فى الهواء فوق منزل الحاج.

ومما خفف وقع هذه التطورات الخطيرة، حادث له معناه..

جاءت سكينة ذات يوم وأخبرت الحاج أنها تنتظر حادثًا سعيدًا.

الحاج له أولاد كثيرون، وزوجته لم تعد تحمل منذ مدة طويلة.. لكن تصوره أنه سيكون له طفل جديد، ومن سكينة بالذات، أمر قد أدخل على قلبه سعادة قصوى.. لم يزل الحاج فى مقدوره أن ينجب.. الحياة لم تنته بعد، وابتسامة الوليد لها روعة فائقة.. سيكون كالدمية الجميلة، وسيكون دون شك حلو السمات والتقاطيع مثل أمه.

وسكينة بدورها قد انتعشت لمثل تلك الخواطر الجميلة وأشرق وجهها بالسعادة والأمل، وأضفى ذلك على سلوكها

وتصرفاتها طابعًا مهذبًا مرحًا . . أيقن الحاج معه أنه يعيش فى ظل حب كبير .

لم يكن الحاج يعلم أن أمورًا خطيرة تدبر فى الخفاء ، وأن ركونه للتفكير الطويل أكثر من اللازم قد يجلب الضرر ، ويؤدى إلى أوخم النتائج ، وخاصة أن دم «عرفان» المسكين لم يجف تمامًا بعد .

لقد علم الشيخ عبد الباقى ، شيخ الطريقة الصوفية ، أن الفلاحين قد بيتوا النية على ارتكاب جريمة .

لقد أجمعوا أمرهم على قتل الحاج عبد الودود نفسه ، وانتهزوا فرصة رحيله إلى قرية قريبة وكمنوا له فى الطريق .

لقد علم الشيخ عبد الباقى بالخبر من أحد دراويشه الذى نقل إليه تفاصيل الخطة .

لم يضيع الشيخ وقتًا ، وإنما أسرع حيث يختبئ الفلاحون بأسلحتهم ، وهبط عليهم فجأة ، فكأنما انشقت عنه الأرض أو هبط لتوه من السماء . . وألجمتهم الدهشة ، ولعلهم اعتبروا ذلك كرامة من كرامات الشيخ الجليل .

وصرخ الشيخ فى غضب :

- أيها الخطاة .

قال أحدهم فى إصرار :

- الدم بالدم .

هتف الشيخ :

- وبهذا تغرق القرية فى برك من الدماء البريئة .

- وماذا نفعل؟

- تعودون إلى بيوتكم وحقولكم .

- تقصد أن نستسلم للظلم .

- ليس بالقتل وحده ينتصر الحق .

- بل نلجأ إلى الأسلوب نفسه الذى اختاره الحاج .

- إنه أسلوب رخيص .

- هو الذى أقدم عليه .

- فلا تسيروا فى الطريق الضال نفسه إن كنتم أطهاراً مؤمنين . . بالصبر والتسامح والحب تجف دماء الأبرياء، وترد الحقوق إلى أصحابها .

قال رجل أسمر البشرة غاضب النظرات :

- أنت أول من يعلم أن الحاج رفض هذا الأسلوب، وقتل عرفان .

- دعونا من الجدل العقيم. إن القتل حدث فى ظروف أنتم تعرفونها. . لقد أصيب الجميع بما يشبه اللوثة، فأتلفت المزارع، وسرقت المواشى، وسالت دماء. . لو كان طريق الدم يصل بنا إلى السلام والرخاء لفكرنا فى سلوكه، لكنه طريق شائك يا أبنائى، ودم عرفان لن يذهب هدراً، وأنتم تعلمون أن الحاج لم يقتل بيديه.

- لكنه المحرض.

- ربما. . لكن أين الدليل؟ ألا يصح أن يكون مصرع عرفان دسيسة خبيثة أقدم عليها بعض المغرضين ليعقدوا الأمور ويسلبوا القرية أمنها وسعادتها؟

ولما لم يجيبوا عاد الشيخ يقول:

- كل شىء جائز، لعلى تحاملت بالأمس على الحاج وتمنيت سحقه. . أنا رجل أشعر وأتألم مثلكم، بل أكثر منكم، لكن المسألة تحتاج لنظرة عاقلة، وأؤكد لكم أنه عندما تصفو النفوس من كدرها، ويعتصم الجميع بالحلم وخلاص الضمائر من الشوائب والأحقاد. . عند ذلك ستنالون ما تريدون.

قال أحد الرجال فى حيرة:

- عودوا إلى دياركم، وارموا بهذا السلاح بعيداً، فالعالم ليس

فى حاجة إلى دماء جديدة، وصدق الله العظيم: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وطأطأ الرجال رؤوسهم قائلين:

- أمرك يا مولانا.. سنعود.

•••

ولم يخف الأمر على أهل القرية، وعلم به الحاج عبد الودود نفسه.

تضايق بادئ الأمر لجرأة الفلاحين ونواياهم الشريرة، لكنه شعر بالارتياح لانصرافهم عن الغدر به. وطابت نفسه لكلمات الشيخ، ووجد نفسه، على الرغم منه، يقارن بين كلمات سكينة ذات مساء وكلمات الشيخ عبد الباقي بالأمس القريب.

ودهمه خاطر مزعج.. ماذا لو نجحت خطة الفلاحين وأصابوا منه مقتلا؟.. معنى ذلك أن تنتهي حياته على الرغم منه، ومعناه أيضًا أن يُحرم من طلعة سكينة وابتسامتها الحلوة، ومعناه أخيرًا ألا يرى الوليد المنتظر الذي يحلم بمقدمه في الصباح والمساء.

وهمس بينه وبين نفسه: لقد طال تفكيري أكثر مما يجب.

وسمع وهو في حجرته نفير عربة.. ما أقل ما تفد العربات إلى القرية.

وقدمت سكينة في اضطراب وقالت:

- لقد قدم أولادك الموظفون، ومعهم ربيع.

- لكنهم لم يخبرونى بذلك .

- هذا ما حدث . . إننى أشعر بحرج شديد .

قال الحاج فى دهشة :

- لماذا؟

- كيف أستقبلهم؟ أنسيت أن أمهم قد رحلت إلى بيت أبيها، وأن زواجنا لا شك قد أغضبهم .

ضحك الحاج وقال :

- إن الحاج عبد الودود حر . . وأولادى لا دخل لهم فى أمورى الخاصة، والزواج مشروع . . وأمهم على العين والرأس . . هى التى رحلت بمحض إرادتها، وأنا على استعداد لاستقبالها فى أى وقت . إن أولادى إذا ما فكروا فى حرمانى من الحب والسعادة فسيكونون أبناء فاسدين بحق . . لا تدعى هذه الأفكار الساذجة تسيطر على عقلك يا سكينة، فأنت فى حماية رجل، رجل علمهم ورباهم وجعلهم موظفين كبارًا . . أتفهمين؟

أحنت سكينة رأسها فى حياء، وسكتت . . بينما استطرد الحاج :

- إذا لم يأتوا للترحيب بك ومصافحتك فى احترام، وتقديم آيات التبجيل الواجبة فلن أبش فى وجوههم، بل سأطردهم .

همست فى ارتباك :

- أرجو ألا تتعقد الأمور .

لقد قدم أبناؤه بعد أن بلغتهم الأنباء السيئة عن القرية ، وبعد أن قام مأمور المركز بالاتصال بهم شخصيًا ، وأفهمهم حقيقة الأمر ، وبيّن لهم أن حل الموقف المتوتر فى يد أبيهم وحده . . وعندما التقوا بأبيهم استقبلوا زوجته سكينة بالاحترام والتقدير اللائق بها . . وبأبيهم . شرعوا فى دراسة الأمر بصراحة ، وقرروا أنه لا بد أن يتنازل أبوهم عن موقفه الصلب . . كما قرروا دفع (دية) لأهل القتيل بطريقة سرية حتى لا تتدخل النيابة ويتدخل القضاء .

وأطرق الحاج واجمًا . .

إن سكينة تقول الكلام نفسه .

والشيخ عبد الباقى لا يرى حلا غير ذلك .

وأولاده يؤكدون أنها الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفوضى والأخطار .

ومدير المركز يشاركهم الرأى .

والفلاحون ينتظرون هذه الخطوة الحاسمة .

والحاج - بينه وبين نفسه - يؤمن بذلك .

وتمتم الحاج قائلا :

- هذا كثير . . إنه ثمن باهظ أدفعه من هيبة الأسرة وكرامتها .

قال ولده الطبيب:

- لا علاج غير هذا.

وقال المهندس:

- هذه مسألة دنيئة، وما نقترحه هو الحل الوحيد.

وانصرف الحاج حائرًا قائلا لهم:

- افعلوا ما تشاؤون.

لم يضيعوا وقتًا، فقد التقوا بالشيخ عبد الباقى وبأهل الخير فى القرية.. واجتمعوا بالمستأجرين وأفسحوا صدورهم لكل نقاش، لم تغضبهم حدته، ولم يضيقوا ذرعًا بالهجوم العنيف الذى ينصبّ على أبيهم وعلى سياسته الجائرة، ولزموا الصمت وارتسمت على وجوههم أمارات الحزن حينما جاء ذكر الضحية.. عرفان المسكين.. ولم ينفض مجلسهم إلا وقد اتفقوا على بنود الصلح، وقرروا عقد حفل كبير، فى مناسبة الاحتفال بمولد سيدى «عيسى العرافى» يحضره مأمور المركز وأعيان المنطقة.. يتصافى فيه الجميع، ويبدأون حياة جديدة.

وصاح أحد الجالسين فجأة:

- لقد نسيتم ولدى جلال الدين.. أيظل حبيس المعتقل إلى الأبد.

وتذكروا الخطيب الشاب .

ونظروا إلى أبيه فى عطف .

وقال الطبيب :

- سنتصل بوزير الداخلية ليصدر أمراً بالإفراج عنه فوراً .

وعلم الحاج بكل ما جرى فلم يبد أدنى اعتراض، وفى المساء نظرت سكينة إلى وجهه الهادئ المشرق، وهمست :

- هذا يوم المنى . . يوم الفرح الحقيقى .

قال وهو يضمها إلى صدره فى حنان :

- كل ذلك من أجل عيونك يا حلوة . . كلماتك نفذت إلى قلبى . . كانت أقوى أثراً من كلمات أولادى والشيخ عبد الباقى . . وضراعات الفلاحين .

قالت فى ذكاء :

- أتدرى لماذا؟

- لماذا يا سكينة؟

- لأنى وجدت مفتاح قلبك .

- ما هو؟

- الحب . . الحب يا حاج .

وهمس:

- هذا حق.. لم أذق طعم الحب الحقيقى إلا يوم أن رأيتك.. عند ذلك أيقنت أن الحب شىء كبير.. فوق الكبرياء.. فوق كل شىء.. يا حمامة السلام.

ونام الحاج، لأول مرة فى حياته، نومًا هادئًا عميقًا، خاليًا من الأفكار السوداء، ومن الأحلام المزعجة المفزعة، وكان واثقًا، لأول مرة أيضًا، أن مزروعاته لن تتلف، وأن الرصاصات الطائشة لن تنطلق صوب منزله، وأن خطابات التهديد التى يبعث بها مجهولون لن ترد إليه فى الغد.

وتمتم فى ألم حقيقى:

- رحم الله عرفان المسكين.. لقد ظلمته.

انتهت

●●●